الأمثال في القرآن الكريم
(دراسة تفسيرية)

إعداد

السعيد فؤاد عبد ربه

المدرس/بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

قسم / التفسير وعلوم القرآن

ملخص

القرآن الكريم كلّه حكمة وعظة ، بلاغ وعبرة ، وقد قام غير واحد من المحقّقين باستخراج الحكم الواردة فيه التي صارت أمثالاً سائرة عبر القرون لتداولها على الألسن في حياتهم العملية. وإنّ هذه الآيات لم تنزل بوصف المثل ، لأنّ المثل عبارة عن كلام تداولته الألسن فصار به أمثالاً سائرة دارجة ، ومن الواضح أنّ الحكم الواردة في القرآن نزلت من دون سبق مثال لها ، فلم تكن يوم نزولها موصوفة بوصف المثل ، وانّما أُضفي عليها هذا الوصف عبر مرّ الزمان وتداول الألسن.

وللبحث أهمية حيث يكتسب الموضوع أهميته من أهمية القرآن الكريم، حيث إنه في أمثاله وهي جزء منه. كما يكتسب أهمية بالغة من جهة أخرى حيث يتعلق بأشرف العلوم، وهو تفسير كتاب الله تعالى.

ويكتسب أهمية من جهة ثالثة حيث يبحث في الأمثال التي لها منزلة وأهمية كبيرة بين أساليب البيان. فللأمثال في اللغة مكانة رفيعة لما لها من دور بارز في الإقناع، وسرعة التفهيم، وإزالة الإشكال. وأحسن الأمثال هي أمثال القرآن الكريم لما حوته من المعاني الحسنة، والدلائل العميقة، المتضمنة للحكمة، ودلائل الحق في المطالب العالية. "وغاية المثل القرآني: إصلاح النفوس، وصقل الضمائر، وتهذيب الأخلاق، وتقويم المسالك، وتصحيح العقائد، وتنوير البصائر، والهداية إلى ما فيه خير الفرد، وصلاح الجماعة، والتنبيه إلى المساوئ لتجتنب، وإلى المحاسن لتقبل عليها النفوس الطيبة والقلوب الزكية"

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده . سيدنا محمد . صلى الله عليه وسلم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله ربه بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً

. أما بعد .

فقد أنزل الله القرآن على عبده محمداً . صلى الله عليه وسلم . هداية وهدى وصرف فيه من الآيات والعبر ما يهتدي به أولوا الأبصار والنهى 'وأورد فيه المثل ليتدبره من عقل وينزجر من غفل ويرجع من شرد وتمرد ويخشع من أقبل وتدبر ' يقرب بالمثل الأمر البعيد ويظهر به حال الصالح والجبار العنيد ' والطيب والخبيث ' لعل الناس يتفكرون ويقبلون إلي ربهم ويرجعون 'ويؤملون في الجنة والثواب العظيم (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) .

وقد امتن الله علي وأكرمني بعد أن أنعم علي وشرفني بكتابة هذا البحث المتواضع . حول الأمثال في القرآن الكريم ' وأكرم بشرف خدمة كتاب الله العزيز من شرف وأنعم به من فضل وكرم ' على الرغم من يقيني بقصوري فيه وقلة بضاعتي ' وهي بضاعة مزجاة لايرجى لصاحبها الفوز والظفر ولكن حسبي أني اجتهدت ' وقدر الله وما شاء فعل ' وألتمس العذر من القارئين والمحكمين . على ما حصل من عيب وخلل (فمن ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط) .

هذا وقد يسر الله لي وخرج هذا البحث في خمسة فصول وعدة مباحث وخاتمة .

(الفصل الأول في تعريف المثل وفوائده) وفيه عدة مباحث :.

المبحث الأول :. تعريف المثل في اللغة .

المبحث الثاني :. تعريف المثل في الاصطلاح.

المبحث الثالث :. فوائد الأمثال السائرة .

المبحث الرابع:. الأمثال القرآنية وفوائدها .

المبحث الخامس :. أهم الكتب المؤلفة في الأمثال القرآنية.

(الفصل الثاني :. تقسيم الأمثال القرآنية إلى الصريح والكامن)

(الفصل الثالث :. ذكر الآيات التي جاء فيها ضرب المثل في القرآن).

(الفصل الرابع :. الآيات التي تجري مجرى المثل)

(الفصل الخامس:. شرح بعض الأمثال القرآنية) وذكرت فيه عشرة أمثال.

الخاتمة :وفيها ملخص البحث وأهم نتائجه .

هذا ما وفقني الله إليه وأعانني عليه فإن أصبت ووفقت فذلك الفضل من الله (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) وإن كانت الأخرى . والله أسأل أن لا تكون . فقولي : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون)

التمهيد :.

وفيه أبرز أهمية موضوع البحث حيث يكتسب الموضوع أهميته من أهمية القرآن الكريم، حيث إنه في أمثاله وهي جزء منه. كما يكتسب أهمية بالغة من جهة أخرى حيث يتعلق بأشرف العلوم، وهو تفسير كتاب الله تعالى.

ويكتسب أهمية من جهة ثالثة حيث يبحث في الأمثال التي لها منزلة وأهمية كبيرة بين أساليب البيان. فللأمثال في اللغة مكانة رفيعة لما لها من دور بارز في الإقناع، وسرعة التفهيم، وإزالة الإشكال. وأحسن الأمثال هي أمثال القرآن الكريم لما حوته من المعاني الحسنة، والدلائل العميقة، المتضمنة للحكمة، ودلائل الحق في المطالب العالية. "وغاية المثل القرآني: إصلاح النفوس، وصقل الضمائر، وتهذيب الأخلاق، وتقويم المسالك، وتصحيح العقائد، وتنوير البصائر، والهداية إلى ما فيه خير الفرد، وصلاح الجماعة، والتنبيه إلى المساوئ لتجتنب، وإلى المحاسن لتقبل عليها النفوس الطيبة والقلوب الزكية"[١].

والأمثال في القرآن الكريم من تصريف الآيات الَّذِي ورد في القرآن الكريم، كما قَال تعالى:{انظُرْ كَيفَ نُصَرِّفُ الآياتِ ثُمَّ هُم يَصْدِفُون}[٢].وقال سبحانه: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إلا كُفُورًا}[٣].وتصريف الآيات يشمل تنويع الحجج والبراهين على قضية واحدة، فيؤتى للقضية الواحدة بأكثر من دليل وبرهان، فتتابع عليهم الحجج وتُصرَّف لهم الأمثال والعبر. [٤]ويشمل تصريف الآيات تنويع الأساليب، فيؤتى بالدليل الواحد بأكثر من أسلوب: فتارة بالخبر، وتارة بالاستفهام، وأخرى بالنفي والإثبات، وأحيانا بضرب الأمثال أو القصص، ونحوها. وكل ذلك وارد في القرآن.

(١) أمثال ونماذج بشرية من القرآن الكريم، أحمد بن محمد طاحون (١/ ١٠٤).

(٢) سورة الأنعام آية (٤٦).

(٣) سورة الإسراء آية (٨٩).

(٤) انْظر: جامع البيان، لابن جرير، (٥/ ١٩٥).

فالأمثال جزء من البيان الإلهي، تسهم في إبراز الحقائق الإيمانية من خلال أسلوبها المتميز الفعال في تشخيص الحقائق والإقناع، والفصل عند الاشتباه والخلاف. وخاصة قضايا الإيمان التي وقع فيها الخلاف: كالأصول التي ينبني عليها الإيمان بالله، وأسباب الهدى والضلال، وتوحيد الألوهية وما يضاده من الشرك، والبعث بعد الموت، وحقيقة الأنبياء والأولياء وأن ليس لهم ولا فيهم من خصائص الألوهية شيء، وحال الدنيا وسرعة زوالها وسوء عاقبة الاغترار بها، ونحو ذلك من القضايا الهامة. والأمثال القرآنية يُفَصِّل الله بها آياته من الحجج والعبر والمواعظ، ونحوها. بين الله ذلك – سبحانه – بعد أن أورد مثلا لبيان حال الدنيا وما تؤول إليه، حيث قَال تبارك وتعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}(١)

وقد أشاد الله سبحانه بأمثال القرآن مبينا أنه اشتمل على كل مثل من الحق يحتاجه الناس، وأن السبيل قد استبان بتلك الأمثال. وما بقي على الناس إلا أن يتفكروا بها ويتذكروا.

قَال الله تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً}(٢).

وقال: {وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنّاسِ لَعَلّهُمْ يَتَذَكّرُونَ}(٣). وقال: {وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنّاسِ لَعَلّهُمْ يَتَفَكّرُونَ}(٤).

(١). سورة يونس آية (٢٤)
(٢). سورة الكهف آية (٥٤)
(٣) سورة إبراهيم آية (٢٥)
(٤) سورة الحشر آية (٢١).

وبين سبحانه أن الأمثال من حجته البالغة على عباده. وأنه لم يعذب أمة بتكذيبها إلا بعد أن بين لها الأمثال.

قَال تعالى:{وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ}(١).

وقال تعالى: {وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا}(٢).

وبين تبارك وتعالى أن الأمثال المضروبة في القرآن من أسباب الهداية. وأنه سبحانه يهدي بها كثيرا ممن تدبرها وانتفع بها، ويضل كثيرا ممن أعرض عنها.

قَال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الفَاسِقِينَ}(٣)

وبين سبحانه أنه ضرب للناس أمثالهم التي يتعرفون بها على الهدى والضلال، والخير والشر، والحق والباطل، وما آل إليه أهلها من العواقب الحميدة، أو النهايات السيئة الوخيمة قَال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا البَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ}(٤)

---

(١) سورة إبراهيم آية (٤٤– ٤٥).

(٢) سورة الفرقان آية (٣٩).

(٣) سورة البقرة آية (٢٦).

(٤) محمد آية(٣).وانظر الأمثال القرآنية القياسية لعبد الله بن عبد الرحمن الجربوع : المقدمة /رسالة دكتوراة بالجامعة الإسلامية بالمدينة ١٤١٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله / والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى أصحابه ومن اتبع هداه

. أما بعد .

فالحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات ، فقد أتم الله علي هذا البحث المبارك حول الأمثال في القرآن الكريم والذي ظهر فيه مدى عناية العلماء بهذا الباب من أبواب علوم القرآن المجيد حيث ألفوا فيه الكتب ودونوا المجلدات ،وأظهر البحث كذلك مدى الحاجة إلى دراسة الأمثال القرآنية وأهميتها لأنها تقرب البعيد وتصور الغائب في صورة المحس المشاهد ، والأمثال كذلك تحمل العظة والعبرة والأمثال القرآنية يُفَصِّل الله بها آياته من الحجج والعبر والمواعظ، ونحوها.، والأمثال فيها التشويق للجنة ونعيمها والتخويف من النار وعذابها ، وفيها الترغيب في عمل الخير بتمثيله بمثل طيب مثمر والتنفير من الشر بتمثيله بالشيء الخبيث الأجدب الذي يجب اجتثاثه ، فالمثل القرآني فيه خير كثير لمن تدبر وتفكر ، ويعلم الله أنني استفدت من ذلك البحث ، ولذلك أوصي نفسي وإخواني من طلاب العلم العناية والاهتمام بهذا الموضوع الشيق والعناية بدراسته ومراجعته والإفادة منه ، ولا يسعني في نهاية وخاتمة بحثي هذا إلا أن أحمد الله تعالى على ما وفق إليه وأعان عليه ، وأن أظهر عجزي وتقصيري عن إيفاء هذا البحث حقه ولكن حسبي أني ولجت وحاولت (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .

والحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات .

منهج البحث وخطوات العمل

هذا وقد اعتمدت في بحثي هذا المنهج الاستقرائي التحليلي في خطوات عمل تمثلت في الآتي :.

١:. خرجت الآيات القرآنية والأحاديث والآثار النبوية.

٢:. عزوت الأقوال إلى قائليها وعلقت على ما تدعو الحاجة إلى التعليق عليه.

٣:. اعتمدت المراجع الأصيلة والعمدة في كل فن تطرق إليه البحث.

٤:. حاولت الاختصار قدر المستطاع ولذا لم أترجم للأعلام أوالأماكن والبقاع.

٥:. عزوت كل قول إلى قائله وكل نقل إلى مصدره ووثقت ذلك كله توثيقا علمياً دقيقاً فمن بركة العلم كما قال القرطبي: نسبته إلى قائله.

٦:. تخيرت بعض النماذج من الأمثال القرآنية للكلام عنها على حسب ترتيب سور المصحف الشريف لأن الأمر يطول والاستقصاء صعب الحصول في مثل هذا البحث المختصر.

٧:. تركت الحشو والاستطراد في مواضع كثيرة وأردت أن يكون الكلام دقيقاً عميقاً يفي بالفائدة والغرض العلمي دون الدخول فيما لاتدعو الحاجة إليه.

٨:. أشرت في مبحث مستقل إلى فوائد الأمثال عامة،وفي مبحث آخرإلى فوائد المثل القرآني خاصة لتعم الفائدة ويستكشف الفرق بين ماهو في قمة البلاغة (المثل القرآني) وبين ما سواه.

٩:. ذكرت الآيات التي جاء فيها ضرب المثل في القرآن . الصريح منه والكامن . لإتمام الفائدة ، ونقلت تعليق بعض العلماء على ذلك.

١٠:. ذيلت البحث بخاتمة موجزة وفهارس فنية .

الفصل الأول(تعريف المثل وفوائده)

وفيه خمسة مباحث:.

١:. تعريف المثل في اللغة .

٢:. تعريف المثل في الاصطلاح.

٣:. فوائد الأمثال السائرة.

٤:. الأمثال القرآنية وفوائدها.

٥:. أهم الكتب المؤلفة في الأمثال القرآنية.

الفصل الثاني

(تقسيم الأمثال القرآنية إلى الصريح والكامن)

الفصل الثالث

(ذكر الآيات التي جاء فيها ضرب المثل في القرآن)

الفصل الرابع

(الآيات التي تجري مجرى المثل)

الفصل الخامس

(شرح بعض الأمثال القرآنية)

الفصل الأول(تعريف المثل وفوائده)

المبحث الأوّل : المثل في اللغة

يظهر من غير واحد من المعاجم ، كلسان العرب والقاموس المحيط، أنّ للفظ « المثل » معاني مختلفة ، كالنظير والصفة والعبرة وما يجعل مثالاً لغيره يُحذا عليه إلى غير ذلك من المعاني. (١)

قال الفيروز آبادي : المِثْل . بالكسر والتحريك . الشبه ، والجمع أمثال ؛ والمَثَلُ . محرّكة . الحجة ، والصفة ؛ والمثال : المقدار والقصاص، إلى غير ذلك من المعاني.

ولكن الظاهر أنّ الجميع من قبيل المصاديق ، وما ذكروه من باب خلط المفهوم بها وليس للّفظ إلا معنى أو معنيين ، والباقي صور ومصاديق لذلك المفهوم ، وممن نبَّه على ذلك صاحب معجم المقاييس ، حيث قال :

المِثْل والمثَل يدلاّن على معنى واحد وهو كون شيء نظيراً للشيء ، قال ابن

فارس : « مثل » يدل على مناظرة الشيء للشيء ، وهذا مثل هذا، أي نظيره ، والمثل والمثال بمعنى واحد. وربما قالوا : « مثيل كشبيه » ، تقول العرب : أمثل السلطان فلاناً ، قتله قوداً ، والمعنى أنّه فعل به مثلما كان فعله.

والمِثْل : المثَل أيضاً ، كشِبْه وشبَه ، والمثل المضروب مأخوذ من هذا ، لأنّه يذكر مورّى به عن مثله في المعنى. وقوله : مَثَّلَ به إذا نُكِّل ، هو من هذا أيضاً ، لأنّ المعنى فيه إذا نُكل به : جعل ذلك مثالاً لكل من

(١) لسان العرب : ٢٢\١١٣ ، مادة مثل .للعلامة ابن منظور الإفريقي . ط :دار الحديث . القاهرة / الأولى١٩٩٩م

صنع ذلك الصنيع أو أراد صنعه. والمثُلات أيضاً من هذا القبيل ، قال الله تعالى : (**وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلات**) [١]أي العقوبات التي تزجر عن مثل ما وقعت لأجله ، وواحدها : مُثُل. [٢]

وعلى الرغم من ذلك فمن المحتمل أن يكون من معانيه الوصف والصفة ، فقد استعمل فيه إمّا حقيقة أو مجازاً ، وقد نسب ابن منظور استعماله فيه إلى يونس ابن حبيب النحوي (المتوفّى ١٨٢ هـ) ومحمد بن سلام

الجمحي (المتوفّى ٢٣٢ هـ) ، وأبي منصور الثعالبي (المتوفّى ٤٢٩ هـ). [٣]

ويقول الزركشي (المتوفّى ٧٩٤ هـ) : إنّ ظاهر كلام أهل اللغة أن المثل هو الصفة ، ولكن المنقول عن أبي علي الفارسي (المتوفّى ٣٧٧ هـ) أنّ المثل بمعنى الصفة غير معروف في كلام العرب ، إنّما معناه التمثيل. [٤]

ويدل على مختار الأكثر ما أورده صاحب لسان العرب ، حيث قال: قال عمر بن أبي خليفة : سمعت مُقاتِلاً صاحب التفسير ، يسأل أبا عمرو بن العلاء ، عن قول الله عزّ وجلّ : (**مَثَلُ الجَنّة**) ، ما مَثَلُها ؟ فقال : (**فيهَا أنهارٌ مِنْ ماءٍ غيرِ آسن**)، قال : ما مَثَلُها ؟ فسكت أبو عمرو.

قال : فسألت يونس عنها ، فقال : مَثَلها صفتها ، قال محمد بن

---

(١) الرعد : ٦.

(٢) معجم مقاييس اللغة : ٢٩٦\٥. للعلامة ابن فارس اللغوي ط دار الكتب العلمية . بيروت الأولى ١٩٨٥م

(٣) لسان العرب : ٢٢\١٣ ، مادة مثل.

(٤) البرهان في علوم القرآن : ٤٩٠\١١. ط: دار المعرفة . بيروت . ١٤١٠هـ

سلام :ومثل ذلك قوله :(**ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإنْجِيل)**[١] أي صفتهم. قال أبو منصور : ونحو ذلك روي عن ابن عباس ، وأمّا جواب أبي عمرو لمقاتل حين سأله ما مثَلُها ، فقال : فيها أنهار من ماءٍ غير آسنٍ ، ثمّ تكريره السؤال ما مَثَلُها وسكوت أبي عمرو عنه ، فانّ أبا عمرو أجابه جواباً مقنعاً ، ولما رأى نبوة فَهْمِ مقاتل ، سكت عنه لما وقف من غلظ فهمه. وذلك انّ قوله تعالى : (**مثل الجنّة**) تفسير لقوله تعالى : (**إنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحات جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهار**) [٢]وصف تلك الجنات ، فقال : مَثَلُ الجنة التي وصفتها ، وذلك مثل قوله : (**ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجيل**) أي ذلك صفة محمّد . صلى الله عليه وسلم . وأصحابه في التوراة ، ثم أعلمهم أنّ صفتهم في [٣]الإنجيل كزرعٍ.

ثمّ إنّ الفرق بين المماثلة والمساواة ، أن المساواة تكون بين المختلفين في الجنس والمتفقين ، لأنّ التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص ، وأمّا المماثلة فلا تكون إلاّ في المتفقين. [٤]

وأمّا الفرق بين المماثلة والمشابهة هو أنّ الأولى تستعمل في المتفقين في الماهية والواقعية ، بخلاف الثانية فإنّما تستعمل غالباً في مختلفي الحقيقة ، المتفقين في خصوصية من الخصوصيات.

وبهذا يعلم أنّ التجربة تجري في المتماثلين والمتفقين في الحقيقة ، كانبساط الفلز حينما تمسُّه النار ، وهذا بخلاف الاستقراء ، فإنّ مجراه الأمور المختلفة كاستقراء أنّ كل حيوان يتحرك فكه الأَسفل عند المضغ ،

(١) الفتح/٢٩

(٢) الحج : ١٤.

(٣) لسان العرب : مادة مثل.

(٤) لسان العرب : مادة مثل.

فيتعلّق الاستقراء بمختلفي الحقيقة كالشاة والبقرة والإبل. وقد تكرر في كلام غير واحد من أصحاب المعاجم أن المَثَل والمثْل سيان ، كالشَبَه والشبْه ، ومع ذلك كلّه نرى أنّ القرآن ينفي المثْل لله ، ويقول : (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيء**) [١] وفي الوقت نفسه يُثبت له المثَل ، ويقول :(**لِلَّذينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخرةِ مَثَلُ السَّوءِ وَللهِ المَثَلُ الأعْلى وَهُوَ الْعَزيزُ الحَكِيم**). [٢]

والجواب : أنّه لا منافاة بين نفي المِثْل لله واثبات المَثَل له ؛ أمّا الأوّل ، فهو عبارة عن وجود فرد لواجب الوجود يشاركه في الماهية ، ويخالفه في الخصوصيات ، فهذا أمر محال ثبت امتناعه في محلّه ، وأمّا المَثَلُ فهو نُعوت محمودة يُعرف بها الله سبحانه كأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وعلى هذا ، المَثَلُ في هذه الآية وما يشابهها بمعنى ما يوصف به الشيء ويعبَّر به عنه ، من صفات وحالات وخصوصيات.

فهذه الآية تصرّح بأنّ عدم الإيمان بالآخرة مبدأ لكثير من الصفات القبيحة ، ومصدر كل شر ، وفي المقابل أنّ الإيمان بالآخرة هو منشأ كل حسنة ومنبع كلّ خير وبركة ، فكلّ وصف سوء وقبيح يلزم الإنسان ويلحقه ، فإنّما يأتيه من قبل عدم الإيمان بالآخرة ، كما أنّ كلّ وصف حسن يلزم الإنسان ينشأ من الإيمان بها ، وبذلك ظهر معنى قوله : (**لِلَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَة مَثَل السَّوء**) الذي يدلّ بالملازمة للذين يؤمنون بالآخرة لهم مثل الحسن.

وأمّا قوله سبحانه : (**وَللهِ المَثَلُ الأعلى**) فمعناه أنّه منزّه من أن يوصف بصفات مذمومة وقبيحة كالظلم ، قال سبحانه : (**ولا يَظلم رَبُّك**

(١) الشورى/١١.
(٢) النحل/٦٠

أَحداً). [1] وفي الوقت نفسه فهو موصوف بصفات محمودة.

فكلّ وصف يستكرهه الطبع أو يردعه العقل فلا سبيل له إليه ، فهو قدرة لا عجز فيها ، وحياة لا موت معها إلى غير ذلك من الصفات الحميدة ، بخلاف ما يقبله الطبع فهو موصوف به. ، وفي المقابل أنّ الإيمان بالآخرة هو منشأ كل حسنة ومنبع كلّ خير وبركة ، فكلّ وصف سوء وقبيح يلزم الإنسان ويلحقه ، فإنّما يأتيه من قبل عدم الإيمان بالآخرة ، كما أنّ كلّ وصف حسن يلزم الإنسان ينشأ من الإيمان بها ، وبذلك ظهر معنى قوله : **(لِلَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَل السَّوء)** [2] الذي يدلّ بالملازمة للذين يؤمنون بالآخرة لهم مثل الحسن.

فكلّ وصف يستكرهه الطبع أو يردعه العقل فلا سبيل له إليه ، فهو قدرة لا عجز فيها ، وحياة لا موت معها إلى غير ذلك من الصفات الحميدة ، بخلاف ما يقبله الطبع فهو موصوف به. وقد أشار إلى ذلك في غير واحد من الآيات أيضاً ، قال : **(وَلَهُ المَثَلُ الأعلى فِي السَّماواتِ وَالأرْضِ)** [3] وقال : **(لَهُ الأسْماءُ الحُسْنى)** [4]، فالأمثال منها دانية ومنها عالية فإنّما يثبت له العالي بل الأعلى. [5]

ومنه يعلم أنّ الأمثال إذا كان جمع مثْل . بالسكون . فالله سبحانه منزّه من المثْل والأمثال ، وأمّا إذا كان جمع مثَل . بالفتح . بمعنى الوصف الذي يحمد به سبحانه ، فله الأمثال العليا ، والأسماء الحسنى كما مرّ.

---

(١) الشورى : ١١.

(٢) النحل : ٦٠.

(٣) الروم : ٢٧.

(٤) طه : ٨.

(٥) انظر: الميزان في تفسيرالقرآن /لمحمد حسين الطباطبائي(١٢ / ٢٤٩) ط: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / بيروت ١٩٩٧م

المبحث الثاني : المَثَلَ في الاصطلاح

المَثَلُ : قسم من الحكم ، يرد في واقعة لمناسبة اقتضت وروده فيها ، ثمّ يتداولها الناس في غير واحد من الوقائع التي تشابهها دون أدنى تغيير لما فيه من وجازة وغرابة ودقة في التصوير.

فالكلمة الحكيمة على قسمين : سائر منتشر بين الناس ودارج على الألسن فهو المثل، وإلا فهي كلمة حكيمة لها قيمتها الخاصة وإن لم تكن سائرة. فما ربما يقال : « المثل السائر » فالوصف قيد توضيحي لا احترازي ، لأنّ الانتشار والتداول داخل في مفهوم المثل ، ويظهر ذلك من أبي هلال العسكري (المتوفّى حوالى ٤٠٠ هـ) ، حيث قال : جعل كل حكمة سائرة، مَثَلاً ، وقد يأتي القائل بما يحسن من الكلام أن يتمثل به إلاّ أنّه لا يتفق أن يسير فلا يكون مَثَلاً. (١) وكلامه هذا ينم « انّ الشيوع والانتشار وكثرة الدوران على الألسن هو الفارق بين الحكمة والمثل ، فالقول الصائب الصادر عن تجربة يسمّى حكمة إذا لم يتداول ، ومثلاً إذا كثر استعماله وشاع أداؤه في المناسبات المختلفة ».

ولأجل ذلك يقول الشاعر :

مـــا أنـــت إلا مثـــل سائـــر يعرفـــه الجاهـــل والخـــابر

وأمّا تسمية ذلك الشيء بالمثال ، فهو لأجل المناسبة والمشابهة بين الموردين على وجه يُصبح مثالاً لكل ما هو على غراره.

(١) جمهرة أمثال العرب : ٥١١.لأبي هلال العسكري ط: دار الكتب العلمية . بيروت . بدون.

قال ابن السكيت المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ ، شبّهوه بالمثال الذي يعمل عليه غيره. (١)

وبما انّ وجه الشبه والمناسبة التي صارت سبباً لإلقاء هذه الحكمة غير مختصة بمورد دون مورد ، وإن وردت في مورد خاص يكون المثل آية وعلامة أو علماً للمناسبة الجامعة بين مصاديق مختلفة.

يقول المبرّد : فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأوّل ، كقول كعب بن زهير :

كانت مواعيد عرقوب لها مَثَلاً وما مواعيدها إلاّ الأباطيل

فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعيد (٢).

وعلى ذلك فالمثل السائر كقوله : « في الصيف ضيعتِ اللبن » علم لكل من ضيَّع الفرصة وأهدرها. (٣)

(١) مجمع الأمثال : ١ / ٦. للميداني ط: الحلبي . مصر ١٣٧٨هـ

(٢) مجمع الأمثال : ١ / ٦.

(٣) مجمع الأمثال : ٢ / ٢٢٥.

المبحث الثالث : فوائد الأمثال السائرة

ذكر غير واحد من الأُدباء فوائد جمة للمثل السائر :

١. قال ابن المقفّع (المتوفّى عام ١٤٣ هـ) : إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق ، وآنق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث.

٢. وقال إبراهيم النظّام (المتوفّى عام ٢٣١ هـ) : يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة.

وقال غيرهما : سُمِّيت الحِكَم القائم صدقها في العقول أمثالاً ، لانتصاب صورها في العقول مشتقة من المثول الذي هو الانتصاب. (١) وقد نقل ابن قيم الجوزية (المتوفّى عام ٧٥١ هـ) كلام النظّام بشكل كامل ، وقال :

وقد ضرب الله ورسوله الأمثال للناس لتقريب المراد وتفهيم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع ، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثّل به فقد يكون أقرب إلى تعقّله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره ، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير.

ففي الأمثال من تأنّس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد ولا ينكره ، وكلّما ظهرت الأمثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً ، فالأمثال شواهد المعنى المراد ، وهي خاصية العقل ولبّه وثمرته. (٢)

---

(١) مجمع الأمثال : ١ / ٦.

(٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية . رحمه الله . : ١ / ٢٩١. ط : المكتبة التوفيقية . القاهرة . بدون.

وقال عبد القاهر الجرجاني (المتوفّى عام ٤٧١ هـ) : إعلم أنّ مما اتّفق العقلاء عليه انّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو أُبرزت هي باختصار في معرضه ، ونُقلت عن صورها الاَصلية إلى صورته كساها أُبّهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشبّ من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفاً ، وقسر الطّباع على أن تُعطيها محبة وشغفاً. فإن كان ذمّاً : كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشدّ ، وحدّه أحد. وإن كان حجاجاً : كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر.

وإن كان افتخاراً : كان شأوه أمدّ ، وشرفه أجد[١] ولسانه ألد.

وإن كان اعتذاراً : كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسلّ ، ولغَرْب الغضب أفلّ ، وفي عُقد العقود أنفث ، وحسن الرجوع أبعث. وإن كان وعظاً : كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر ، وأجدر أن يجلى الغياية [٢] ويُبصّر الغاية ، ويبريَ العليل ، ويشفي الغليل. [٣]

٣. وقال أبو السعود (المتوفّى عام ٩٨٢ هـ) : إنّ التمثيل ليس إلاّ إبراز المعنى المقصود في معرض

الأمر المشهور ، وتحلية المعقول بحلية المحسوس ، وتصوير أوابد المعاني بهيئة المأنوس ، لاستمالة الوهم واستنزاله عن معارضته للعقل ، واستعصائه عليه في إدراك الحقائق الخفيّة ، وفهم الدّقائق الأبيّة ؛ كي يتابعه فيما يقتضيه ، ويشايعه إلى ما لا يرتضيه ، ولذلك شاعت الأمثال

(١) من الجد : الحظ ، يقال : هو أجدّ منك ، أي أحظ.

(٢) الغياية : كل ما أظلك من فوق رأسك.

(٣) أسرار البلاغة : ١٠١ . ١٠٢. للجرجاني ط:دار الإيمان . المنصورة /١٩٩٧م.

في الكتب الإلهية والكلمات النبوية ، وذاعت في عبارات البلغاء ، وإشارات الحكماء.

إن التمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبيّ ، وقمع سورة الجامح الأبيّ ، كيف لا ، وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية ، وإبرازها لها في معرض المحسوسات الجلية وإبداء للمنكر في صورة المعروف ، وإظهار للوحشي في هيئة المألوف. (١) ولعلّ في هذه الكلمات غنى وكفاية فلا نطيل الكلام ، غير انّه يجب التنبيه على نكتة ، وهي أن السيوطي نقل في « المزهر » عن أبي عبيد أنّه قال : الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية. (٢)

ولا يخفى أنّ الأمثال ليست من خصائص العرب فحسب ، بل لكلّ قوم أمثال وحكم يقرّبون بها مقاصدهم إلى إفهام المخاطبين ويبلغون بها حاجاتهم ، وربما يشترك مَثَلٌ واحد بين أقوام مختلفة ، ويصبح من الأمثال العالمية ، وربما تبلغ روعة المثل بمكان يقف الشاعر أمامه مبهوراً فيصب مضمونه في قالب شعري. روى الطبري عن مهلّب بن أبي صفرة ، قال : دعا المهلَّب حبيباً ومن حضره من ولده ، ودعا بسهام فحزمت ، وقال : أترونكم كاسريها مجتمعة ؟ لا ، قال : قالوا : أفترونكم كاسريها متفرقة ؟ قالوا : نعم ، قال : فهكذا الجماعة. (٣)

(١) هامش تفسير الفخر الرازي : ١ / ١٥٦ ، المطبعة الخيرية ، ط الأُولى ، مصر . ١٣٠٨ هـ.

(٢) المزهر : ١ / ٢٨٨. للسيوطي ط: دار المعرفة . بيروت ١٩٨٠م

(٣) تاريخ الطبري : حوادث سنة ٨٢ هـ. ط: الحلبي مصر /بدون.

وليس المهلب أوّل من ساق هذا المثل على لسانه ، فقد سبقه غيره إليه. روى أبو هلال العسكري في جمهرته ، عن قيس بن عاصم التميمي (المتوفّى عام ٢٠ هـ) الأبيات التالية التي تعرب بأنّ المثل صبّ في قالب الشعر أيضاً :

بصلاح ذات البين طول بقائكم إن مُدّ في عمري وإن لم يُمدد
حتى تلين قلوبكم وجلودكم لمسوّد منكم وغير مسوّد
إنّ القداح إذا جمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش باليد
عزّت فلم تكسر وإن هي بُدّدت فالوهن والتكسير للمتبدّد (١)

وقد نقل المسعودي في ترجمة عبد الملك بن مروان ، وقال : كان الوليد متحنّناً على إخوته مراعياً سائر ما أوصاه به عبد الملك ، وكان كثير الإنشاد لأبيات قالها عبد الملك حين كتب وصيته ، منها :

انفوا الضغائن عنكم وعليكم عند المغيب وفي حضور المشهد
إنّ القداح إذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش باليد
عزّت فلم تكسر وإن هي بُدّدت فالوهن والتكسير للمتبدّد (٢)

(١) جمهرة الأمثال : لأبي هلال العسكري / ١ / ٤٨.

(٢) مروج الذهب في أخبار من ذهب/للمسعودي . رحمه الله . (أخبار الوليد بن عبد الملك)٣/٢٦٤ط: دار الصفوة المنصورة/١٩٩٧م.

المبحث الرابع : الأمثال القرآنية وفوائدها

دلّت غير واحدة من الآيات القرآنية على أنّ القرآن مشتمل على الأمثال ، وأنّه سبحانه ضرب بها مثلاً للناس للتفكير والعبرة ، قال سبحانه: **(لَوْ أَنْزَلْنا هذا الْقُرآنَ عَلى جَبلٍ لَرَأيْتَهُ خاشِعاً مُتَصدّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأمْثالُ نَضْرِبُها لِلناسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفكَّرون).** (١)

إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على وجود الأمثال في القرآن ، وانّ الروح الأمين نزل بها ، وكان مَثَلاً حين النزول على قلب سيد المرسلين ، هذا هو المستفاد من الآيات. ومن جانب آخر أنّ المثل عبارة عن كلام أُلْقيَ في واقعة لمناسبة اقتضت إلقاء ذلك الكلام ، ثمّ تداولت عبر الزمان في الوقائع التي هي على غرارها كما هو الحال في عامة الأمثال العالمية. وعلى هذا فالمثل بهذا المعنى غير موجود في القرآن الكريم ، لما ذكرنا من أنّ قوام الأمثال هو تداولها على الألسن وسريانها بين الشعوب ، وهذه الميزة غير متوفرة في الآيات القرآنية. كيف وقد أسماه سبحانه مثلاً عند النزول قبل أن يعيها النبي ويقرأها للناس ويدور على الألسن ، فلا مناص من تفسير المثل في القرآن بمعنى آخر ، وهو التمثيل القياسي الذي تعرّض إليه علماء البلاغة في علم البيان وهو قائم بالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز ، وقد سمّاه القزويني « في تلخيص المفتاح » المجاز المركب وقال :

إنّه اللفظ المركب المستعمل فيما شُبّه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه ، ثمّ مثّل بما كتب يزيد بن وليد إلى مروان بن محمد

(١) الحشر/٢١

حين تلكأ عن بيعته : أمّا بعد ، فإنّي أراك تقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى ، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيّهما شئت ، والسلام. [١]

فلهذا التمثيل من المكانة ما ليس له لو قصد المعنى بلفظه الخاص ، حتى أنّه لو قال مثلاً : بلغني تلكّؤك عن بيعتي ، فإذا أتاك كتابي هذا فبايع أو لا ، لم يكن لهذا اللفظ من المعنى بالتمثيل ، ما لهذا.

فعامة ما ورد في القرآن الكريم من الأمثال فهو من قبيل التمثيل لا المثال المصطلح. ثمّ إنّ الفرق بين التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز أمر واضح لا حاجة لإطناب الكلام فيه ، وقد بيّنه علماء البلاغة في علم البيان ويظهر من بعضهم أنّ التمثيل من معاني المثل ، قال الآلوسي : المثل مأخوذ من المثول . وهو الانتصاب . ومنه الحديث « من أحبّ أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوّأ مقعده من النار » ثم أطلق على الكلام البليغ الشائع الحسن المشتمل إمّا على تشبيه بلا شبيه أو استعارة رائقة تمثيلية وغيرها ، أو حكمة وموعظة نافعة ، أو كناية بديعة أو نظم من جوامع الكلم الموجز. [٢]

وقد حازت الأمثال القرآنية على اهتمام المفكرين ، فذكروا حولها كلمات تعرب عن أهمية الأمثال ومكانتها في القرآن :

١. قال حمزة بن الحسن الاصبهاني (المتوفّى عام ٣٥١ هـ) : لضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء النظائر ، شأن ليس بالخفي في إبراز خفيّات الدقائق ورفع الأستار عن الحقائق ، تريك المتخيَّل في

(١) الإيضاح في علوم البلاغة(٢٣ /٢)للخطيب القزويني ط: دار الإيمان . المنصورة . بدون؛ التلخيص(٣٢٢)ط: دار الريان . القاهرة . ١٩٨٣م.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ١ / ١٦٣. للآلوسي ط: دار الكتب . العلمية .١٩٩٣م.

صورة المتحقق ، والمتوهَّم في معرض المتيقن ، والغائب كأنّه مشاهد ، وفي ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة ، وقمع لسورة الجامح الأبيّ ، فإنّه يؤثر في القلوب ما لا يؤثّر وصف الشيء في نفسه ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه وفي سائر كتبه الأمثال ، ومن سور الإنجيل سورة تسمّى سورة الأمثال وفشت في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء. (١)

٢. قال الإمام أبو الحسن الماوردي (المتوفّى عام ٤٥٠ هـ) : من أعظم علم القرآن علم أمثاله ، والنّاس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال ، وإغفالهم الممثَّلات ، والمثل بلا ممثَّل كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام. (٢)

٣. قال الزمخشري (المتوفّى عام ٥٣٨ هـ) في تفسير قوله سبحانه : (**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً**) (٣) : وضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر ، إلى آخر ما نقلناه عن الاصبهاني. (٤)

٤. وقال الرازي (المتوفّى عام ٦٠٦ هـ) : « إن المقصود من ضرب الأمثال انّها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه ، وذلك لأنّ الغرض في المثل تشبيه الخفي بالجلي ، والغائب بالشاهد ،

---

(١) الدرّة الفاخرة في الأمثال السائرة : (٥٩. ٦٠) ط: الحلبي . مصر بدون والعجب أن هذا النص برمّته موجود في الكشّاف في تفسير قوله سبحانه : (**فَما رَبِحَتْ تِجارتهم وَما كانُوا مُهْتَدين مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذي استَوقَدَ ناراً**) (انظر الكشّاف : ١ / ١٤٩).ط:دار السحار . مصر. بدون.

(٢) الإتقان في علوم القرآن:للإمام جلال الدين السيوطي . رحمه الله .(٢ / ١٠٤١).ط . المكتبة التوفيقية . القاهرة . بدون.

(٣) البقرة : ١٧.

(٤) الكشّاف : ١ / ٧٢.

فيتأكد الوقوف على ماهيته ، ويصير الحس مطابقاً للعقل ، وذلك في نهاية الإيضاح ، ألا ترى أنّ الترغيب إذا وقع في الإيمان مجرّداً عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه إذا مُثّل بالنور ، وإذا زهد في الكفر بمجرّد الذكر لم يتأكد قبحه في العقول ، كما يتأكد إذا مثل بالظلمة ، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورته من الإخبار بضعفه مجرّداً ، ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين ، وفي سائر كتبه أمثاله ، قال تعالى : (**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُها لِلنّاس**) [١][٢]

٥. وقال الشيخ عزالدين عبدالسلام (المتوفّى عام ٦٦٠ هـ) : إنّما ضرب الله الأمثال في القرآن ، تذكيراً ووعظاً ، فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب ، أو على إحباط عمل ، أو على مدح أو ذم أو نحوه ، فإنّه يدل على الاحكام. [٣]

٦. وقال الزركشي (المتوفّى عام ٧٩٤ هـ) : وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى ، إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي ، والشاهد بالغائب فالمرغب في الإيمان مثلاً ، إذا مثّل له بالنور تأكّد في قلبه المقصود ، والمزهَّد في الكفر إذا مثل له بالظلمة تأكد قبحه في نفسه وفيه أيضاً تبكيت الخصم ، وقد أكثر الله تعالى في القرآن ، وفي سائر كتبه من الأمثال. [٤]لكن يرد على ما ذكره

---

(١) العنكبوت : ٤٣.

(٢) مفاتيح الغيب:٢/٧٢.٧٣.

(٣) الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ١٠٤١.

(٤) البرهان في علوم القرآن:للإمام بدر الدين الزركشي . رحمه الله . (١/ ٤٨٨).ط: دار المعرفة . بيروت .

الزمخشري والرازي والزركشي أنّ ما ذكروه راجع إلى نفس الأمثال لا إلى الضرب بها ، فانّ الأمثال شيء وضرب الأمثال شيء آخر ، لأنّ إبراز المتخيل بصورة المحقّق ، والمتوهم في معرض المتيقن ، ليس من مهمة ضرب الأمثال ، وإنّما هي مهمة نفس الأمثال ، « وذلك أنّ المعاني الكلية تعرض للذهن مجملة مبهمة ، فيصعب عليه أن يحيط بها وينفذ فيها فيستخرج سرّها ، والمثل هو الذي يفصّل إجمالها ، ويوضّح إبهامها ، فهو ميزان البلاغة وقسطاسها ومشكاة الهداية ونبراسها ». [١] ويقول الشيخ / محمد الخضر حسين في فوائد ضرب المثل في القرآن: يضرب المثل لتقرير حال الممثل في النفس، حيث يكون الممثل به أوضح من الممثل، أو يكون للنَّفْسِ سابقة ألفة وائتناس به، كما ضرب الله مثلاً لحالِ المنفق رِياءً، حيثُ لا يَحْصُل من إنفاقه على شيءٍ من الثواب، فقال تعالى: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا}فقد مثَّل حال المرائي في إنفاقه بحال الحجر الأملس يكون عليه تراب، فيصيبُه مطرٌ غزير، فيذهبُ بِما عليه من تراب، فأعمال المُرائي مثل التراب الذي كان على الحجر، فإنَّها تذهب هباء، ولا يجد لها ثوابًا، وفي هذا المثل تقرير لخيبة المرائي على وجه أبلغ ما يكون. ويُضرب المثل للترغيب في الممثل، حيثُ يكون الممثل به مِمَّا تستَحْسِنُه النفوس وترغب فيه، كما ضرب الله مثلاً لحال المُنْفِق في سبيل الله، حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير، فقال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}

(١) تفسير المنار(١/ ٢٣٧) للشيخ محمد رشيد رضا . ط: دار الشعب . القاهرة.

ويُضرب المثل للتنفير، حيثُ يكون الممثل به مما تكرهه النفوس وتنفر منه، كما ضرب الله مثلاً لحال المغتاب، فقال تعالى: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}وليس من شكٍّ في نفور الطِّباع من أكل لحم الأخ وهو ميت، فينبغي أن يكون نفوره من الغيبة بِمقدار هذا النفور. ويضرب المثل لمدح الممثل، حيث يكون في الممثل به صفات تستحسنها النفوس، وتمدح من يحرز مثلها، كما ضرب الله مثلاً لحال الصحابة – رضي الله عنهم – فقال تعالى: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآَزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}.فالزرع يخرج شطأه، وهو ما تفرع في شاطئيه؛ أي جوانبه، ثم يقوى ويستغلظ أي يصير بعد الدِّقَّة غليظًا، وكذلك حال الصحابة؛ فإنَّهم كانوا في بدء الأمر قليلاً ،ثم أخذوا في الكثرة حتى استحكم أمرهم ، وامتلأتِ القلوب إعجابًا بعظمتهم ويضرب المثل للذَّمِّ، حيث يكون للممثل به صفة يستقبحها الناس، ويذمون من رضي لنفسه بمثلها، كما ضرب الله مثلاً لحال من آتاه الله كتابه، فنكث يده من العمل به، وانحط في أهوائه، فقال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آَتَيْنَاهُ آَيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا}فقد مثلت الآية حال العالم المنحطِّ في أهوائه بحال الكلب، الذي هو أخبث الحيوان وأخسها نفسًا، ذلك أن المنحط في أهوائه شديد اللهف على الدنيا، قليل الصبر عنها، فلهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه. ويضرب المثل في مقام الاحتجاج، حيث يلزم من تسليم الممثل به، وإدراك أن الممثل مطابق

له – الرجوع إلى الاعتقاد بالحق، كما ضرب الله مثلاً للدلالة على أنه الإله الحق، وأن الأوثان لا تستحق أن تعبد، فقال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ}.إذ دلَّ بالمثل على عجز الأصنام عن أن تنفع عابدها بشيء؛ إذ مثَّل حالَها بِحال العبد المملوك الذي لا يقدِرُ على شيء، ودلَّ على كمال قُدرتِه؛ إذ جعل في مقابلة العبد المملوك الممثل للأصنام مَن اتسع رزقه وكان ينفق منه كيف يشاء، ومن له مسكة من العقل لا يتولى العاجز بالعبادة، ويدع عبادة القادر على كل شيء. ومن بديع أسلوب القرآن في ضرب المثل أن يسوق الجمل، مستعملاً لها في معانيها الحقيقية، قاصدًا بها غرضًا خاصًّا؛ كالاحتجاج على بعض العقائد، وبعد أن يفيد بها هذا الغرض يعود إلى جعلها مثلاً يرمي إلى غرض من الأغراض التي تضرب لها الأمثال، فانظروا إن شئتم إلى قوله تعالى: {وَهُوَ الوَاحِدُ الْقَهَّارُ * أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}.فقوله تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً... إلى قوله {زَبَدٌ مِثْلُهُ} ظاهر في معنى تقرير حجة على كمال قدرته تعالى، وبعد أن أقام به حجة على المشركين جعل هذا القول نفسه مثلاً يستبين به الحق والباطل، فقال تعالى: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ}، وهذا من الإيجاز الذي بلغ به القرآن أعلى طبقات البلاغة. إذا ضرب الله مثلاً، فهل يجوز أن يراد من ذلك المثل المعني الذي سيق من أجله؛ نحو التقرير أو التحسين، أو التقبيح، ولا يلزم أن تكون صورة الممثل به واقعة في نفس الأمر؟!ذهب فريق

إلى جواز ذلك، فتَرَوْنَ الزمخشري وهو ينكر أن يصرع الشيطان الإنسان، يقول في قوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}"تخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أنَّ الشيطان يخبط الإنسان فيصرعه، فورد على ما كانوا يعتقدون"، أو يقال إن الله لا يضرب المثل إلا بما يقع، حتى إذا ضرب المثل بشيء أمكننا الاستدلال بالتمثيل على وقوع ذلك الشيء، وهذا ما يقوله جمهور أهل السنة، ونحن نستبعد أن يُمثِّل الله تعالى بأمر يزعمه الناس زعمًا باطلاً، فإن التمثيل به دون تنبيه على بطلانه لا يلائم ما عرف في هداية القرآن، ومن هنا قرر المحققون من الأصوليين قاعدة، هي أن ما يقصه القرآن من قول يتضمَّن رأيًا ولا يقرنه بتنبيه على بطلانه، أو يكون قد نبه عليه من قبل، فإنه يعد حقًّا لا محالة. فالقرآن لا يمثل بشيء يزعمه العرب زعمًا باطلاً، ولكنه قد يمثل بشيء لا يدخل في قبيل المزاعم الباطلة، وإنما هو شيء يصفه بصفات مفهومة الحقائق، ممكنة الوقوع، وإن لم تقع عليها أعين الناس مجتمعة، فالله تعالى يقول: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ} فقد ذكر طائفة من الباحثين أن هذا من قبيل التمثيل بموجود، وأنَّ البرة "الحبة من البر" قد تبلغ في الأرض القوية المغلة أن تنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، وعلى فرض أن لا يرى الناس حبة بلغت في الإنبات هذا المبلغ، لم يكن في تمثيل القرآن بها من بأس. وقد يضرب القرآن المثل بأمر موجود على حال حسن أو قبح، والناس يعتقدونه على ما هو عليه من حسن أو قبح، وإن لم يروه بأبصارهم، ولكنه يحضر في أذهانهم بصورة جميلة أو صورة قبيحة، فيكون التمثيل به تمثيلاً بأمر موجود، وصورته الحاضرة في الأذهان مطابقة للواقع من

حيث حسنها أو قبحها، ومثال هذا قوله: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ}فالشيطان شخص حي، ولكن المخاطبين لم يروه بأبصارهم، وجاء التمثيل في هذه الآية على ما اعتقدوه اعتقادًا مطابقًا من قبح صورته، وعلى هذا النحو يجري التمثل بالملك في قوله تعالى: {مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} [يوسف: ٣١] فإن التمثيل جارٍ على ما تصوروه من حسنه، وهذا التصور صادق لا محالة. وإن تعجب فاقض العجب مِمَّن يعمد إلى قصة في القرآن، قصها الله تعالى لما فيها من عبرة وحكمة، ويجرؤ على أن يقول: "إن هذه القصة وردت على طريقة التمثيل"، يقول هذا وليس بيده شاهد من الآية نفسها، ولا دليل سمعي من غيرها، ولا أن العقل السليم ينكر أن تكون واقعة، كما قال بعضهم هذا القول في قصة الملائكة وسجودهم لآدم عليه السلام. ولو فتح هذا الباب من التأويل الجامح، لاتخذه ضعفاء الإيمان وسيلة إلى جحود كثير من الحقائق، حيث يحملون آياتها على أنها تمثيل، ويخترعون لها من الممثلات ما تشاء أهواؤهم. وإذا كان القرآن إنما نزل بلسانٍ عربِيٍّ مبين، فإنَّ العرب لا يذهبون بالكلام مذهب التمثيل إلا أن يحفوه بقرينة كافية في الدلالة على أنه تمثيل. (١)

(١) انظر :مجلة الهداية الإسلامية ج/٣ /مجلد١٦/رمضان ١٣٦٢هـ . القاهرة.

المبحث الخامس : الكتب المؤلفة في الأمثال القرآنية

ولأجل هذه الاَهمية التي حازتها الأمثال القرآنية ، قام غير واحد من علماء الإسلام القدامى منهم والجدد ، بتأليف رسائل وكتب حول الأمثال القرآنية أذكر منها بعض ما وفقني الله تعالى للوقوف عليه ،وهي في ذات الوقت من أشهرها [١]

١. « أمثال القرآن » للجنيد بن محمد القواريري (المتوفّى سنة ٢٩٨ هـ).
٢. « أمثال القرآن » لإبراهيم بن محمد بن عرفة بن مغيرة المعروف بنفطويه (المتوفّى سنة ٣٢٣ هـ).
٣. « الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة » لحمزة بن الحسن الاصبهاني (المتوفّى ٣٥١ هـ).
٤. « أمثال القرآن » لأبي على محمد بن أحمد بن الجنيد الاسكافي (المتوفّى عام ٣٨١ هـ).
٥. « أمثال القرآن » للشيخ أبي عبد الرحمن محمد بن حسين السلمي النيسابوري (المتوفّى عام ٤١٢ هـ).
٦. « الأمثال القرآنية » للإِمام أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي (المتوفّى سنة ٤٥٠ هـ).
٧. « أمثال القرآن » للشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم

(١) وقد ذكر الدكتور يوسف المرعشلي في تحقيقه لبرهان الزركشي ط: دار المعرفة . بيروت . ١٤١٠هـ ٢٠٠٠م هذه المراجع ،وزاد عليها عدداً آخر لمن أراد الزيادة.

الجوزية (المتوفّى سنة ٧٥٤ هـ).

٨. « الأمثال القرآنية » لعبد الرحمن حسن حنبكة الميداني.

٩١. « أمثال القرآن » للمولى أحمد بن عبد الله الكوزكناني التبريزي (المتوفّى عام ١٣٢٧ هـ). المطبوعة على الحجر في تبريز عام ١٣٢٤ هـ.

١٠. « أمثال القرآن » للدكتور محمود بن الشريف.

١١. « الأمثال في القرآن الكريم » للدكتور محمد جابر الفياضي.. ١٢. « الصورة الفنية في المثل القرآني » للدكتور محمد حسين علي الصغير..

الفصل الثاني

تقسيم الأمثال القرآنية إلى الصريح والكامن

ذكر بدر الدين الزركشي ان الأمثال على قسمين : ظاهر وهو المصرّح به وكامن وهو الذي لا ذكر للمثل فيه وحكمه حكم الأمثال. [١]

وقد نقل السيوطي ذلك النص بنفسه وحاول تفسير المثل الكامن ، وقال ما هذا نصّه : فمن أمثلة الأوّل ، قوله تعالى : (**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذي اسْتَوقَدَ ناراً ...**) [٢]ضرب فيها للمنافقين مثلين : مثلاً بالنار ومثلاً بالمطر . ثمّ قال . : وأما الكامنة : فقال الماوردي : سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم ، يقول : سمعت أبي يقول : سألت الحسين بن فضل ، فقلت : إنّك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن فهل تجد في كتاب الله : « خير الأمور أوسطها » ؟ قال : نعم في أربعة مواضع :

قوله تعالى : (**لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ**). [٣]

وقوله تعالى : (**وَالّذينَ إذا أَنْفَقُوا لم يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُروا وكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً**). [٤]

وقوله تعالى : (**وَلا تَجْعَل يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ**). [٥]

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٥٧١.

(٢) البقرة : ١٧ . ٢٠.

(٣) البقرة : ٦٨.

(٤) الفرقان : ٦٧.

(٥) الإسراء : ٢٩.

وقوله تعالى : (**وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبيلاً**). (١)

قلت : فهل تجد في كتاب الله « من جهل شيئاً عاداه » ؟ قال : نعم ، في موضعين (**بَل كَذّبُوا بما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ**). (٢)(**وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَديم**). (٣)

قلت : فهل تجد في كتاب الله « احذر شر من أحسنت إليه » ؟ قال : نعم.

(**وما نَقمُوا إلاّ أن أغْناهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ**). (٤)

قلت : فهل تجد في كتاب الله « ليس الخبر كالعيان » ؟ قال : في قوله تعالى : (**قالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن قال بَلى ولَكِنْ لِيَطْمَئِنّ قَلْبي**). (٥)

قلت : فهل تجد « في الحركات البركات » ؟ قال : في قوله تعالى: (**وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبيلِ اللهِ يَجِدْ في الأَرْضِ مُراغَماً كَثيراً وَسَعَة**). (٦)

قلت : فهل تجد « كما تدين تدان » ؟ قال : في قوله تعالى : (**مَنْ يعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِه**). (٧)

قلت : فهل تجد فيه قولهم « حين تَقْلي تدري » ؟ قال : (**وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حينَ يَرَونَ العَذابَ مَن أَضلُّ سَبِيلاً**). (٨)

---

(١) الإسراء : ١١٠.
(٢) يونس : ٣٩.
(٣) الأحقاف : ١
(٤) التوبة : ٧٤.
(٥) البقرة : ٢٦٠.
(٦) النساء : ١٠٠.
(٧) النساء : ١٢٣.
(٨) الفرقان : ٤٢.

قلت : فهل تجد فيه : « لا يُلدغ المؤمن من جحر مرّتين » ؟ قال: **(هَلْ آمنُكُمْ عَليهِ إلا كَما أَمِنتُكُمْ عَلى أَخيهِ مِنْ قَبْلُ)**. (١)

قلت : فهل تجد فيه « من أعان ظالماً سُلّط عليه » ؟ قال : **(كَتَبَ عَليهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعير)**. (٢)

قلت : فهل تجد فيه قولهم : « ولا تلد الحية إلا حيّة » ؟ قال : قوله تعالى : **(وَلا يَلِدُوا إلا فـ**اجِراً كَفّاراً **)**. (٣)

قلت : فهل تجد فيه : « للحيطان آذان » ؟ قال : **(وَفِيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ)**. (٤)

قلت : فهل تجد فيه : « الجاهل مرزوق والعالم محروم » ؟ قال : **(مَنْ كانَ فِي الضَّلالةِ فَلْيَمْدُد لَهُ الرَّحْمنُ مَدّاً)**. (٥)

قلت : فهل تجد فيه : « الحلال لا يأتيك إلا قوتاً ، والحرام لا يأتيك إلا جزافاً » ؟ قال : **(إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَومَ سَبْتِهِمْ شُرّعاً وَيَومَ لا يَسْبِتُونَ لا تأْتِيهم)** (٦) (٧).

وقد أخذ عليه « بأنّه لو حققْتَ النظر فيما أورده الماوردي ، لما وجدت مثلاً قرآنياً واحداً بالمعنى الذي يراد التعبير عنه بأنّه مثل كامن ، على أنّ الماوردي لم ينقل عن الحسين بن الفضل بأنّ متخيّره هذا مثل كامن ، ولاسمَّى الماوردي ذلك به ، وإنّما أورد رواية للمقارنة بما يمكن أن

---

(١) يوسف : ٦٤.
(٢) الحج : ٤.
(٣) نوح : ٢٧.
(٤) التوبة / ٤٧
(٥) مريم : ٧٥.
(٦) الأعراف : ١٦٣.
(٧) الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ١٠٤٥ . ١٠٤٦.

يعد أمثالاً من كلام العرب والعجم ، ووضع قائمة مختارة ازاءه من كتاب الله بما يبذّ كلامهم ويعلو على أمثالهم. فالتسمية إذن اختارها السيوطي متابعاً فيها الزركشي. وطبّق عليها هذه الأمثلة. فهي فيما عنده أمثال كامنة ولكنّه من الواضح أن هذه العبارات القرآنية لا تدخل في باب الأمثال ، فإن اشتمال العبارة على معنى ورد في مثل من الأمثال ، لا يكفي لإطلاق لفظ المثل على تلك العبارة ، فالصيغة الموروثة ركن أساس في المثل، لذلك نرى أنّ اصطلاح العلماء على تسمية هذه العبارات القرآنية (أمثالاً كامنة) محاولة لا تستند على دليل نصّي ولا تاريخي. [١]

تفسير آخر للمثل الكامن :

ويمكن تفسير المثل الكامن بالتمثيلات التي وردت في الذكر الحكيم من دون أن يقترن بكلمة « مثل » أو « كاف » التشبيه ، ولكنّه في الواقع تمثيل رائع لحقيقة عقلية بعيدة عن الحسن المجسّد بما في التمثيل من الأمر المحسوس ، ومن هذا الباب قوله سبحانه(**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقوى مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ خَيرٌ أَمْ مَن أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ في نارِ جَهَنَّم**

وَاللهُ لا يَهْدي القَوم الظّالمين[٢] إنّه سبحانه شبَّه بنيانهم على نار جهنم بالبناء على جانب نهر هذا صفته ، فكما أنّ من بنى على جانب هذا النهر فإنّه ينهار بناءه في الماء ولا يثبت ، فكذلك بناء هؤلاء ينهار ويسقط في نار جهنم فالآية تدلّ أنّه لا يستوي عمل المتقي وعمل المنافق،

(١) الصورة الفنية في المثل القرآني (ص ١١٨):لمحمد حسين الصغير/ط دار الهادي . العراق١٩٩٢م.

(٢) التوبة : ١٠٩

فإنّ عمل المؤمن المتقي ثابت مستقيم مبني على أصل صحيح ثابت وعمل المنافق ليس بثابت وهو واهٍ ساقط[١].

٢. **(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَروا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدخُلُونَ الجنَّةَ حتّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي المُجْرِمِين).** [٢]كانت العرب تمثّل للشيء البعيد المنال ، بقولهم : لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب ، وحتى يَبْيَضَّ القار ، إلى غير ذلك من الأمثال. يقول الشاعر :

إذا شـــاب الغـــراب أتيـــت أهلـــي وصـــار القـــار كـــاللبن الحليـــب

ولكنّه سبحانه مثّل لاستحالة دخول الكافر الجنّة بأنّهم يدخلون لو دخل الجمل في ثقب الإبرة ، وقال : ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط ، معبراً عن كونهم لا يدخلون الجنة أبداً. ففي الآية تمثيل وليس لها من لفظ المثل وحرف التشبيه أثر.

٣. **(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الآيات لِقَوْمٍ يَشْكُرُون)** [٣].

إنّ هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فأخبر بأنّ الأرض كلّها جنس واحد ، إلا أنّ منها طيّبة تلين بالمطر ، ويحسن نباتها ويكثر ريعها، ومنها سبخة لا تنبت شيئاً ، فإن أنبتت فممّا لا منفعة فيه ،وكذلك القلوب كلّها لحم ودم ثمّ منها ليّن يقبل الوعظ ومنها قاسٍ جافٍ لا يقبل

(١) مجمع البيان للإمام الطبرسي . رحمه الله . (٣ /٧٣) ط : دار الكتب العلمية . بيروت . بدون.
(٢) الأعراف : ٤٠.
(٣) الأعراف : ٥٨.

الوعظ ، فليشكر الله تعالى من لانَ قلبه بذكره. (١) وفي ذيل الآية (**كَذلِكَ نُصَرّفُ الآيات**) إلماح إلى كونه تمثيلاً ، كما في الآية التالية.

٤. قال سبحانه : (**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلّ الثَّمراتِ وَأَصابَهُ الكِبَر وَلَهُ ذُرّيّةٌ ضُعفاءُ فَأَصابَها إعصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحترَقَتْ كَذلِكَ يُبَيّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُون**). (٢) أخرج البخاري عن ابن عباس ، قال : قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي . صلى الله عليه وسلم . فيمن ترون هذه الآية نزلت (**أَيَوَدُّ أَحدكُمْ أَنْ تَكُون لَهُ جَنَّة مِنْ نَخيل وَأَعْناب**)؟ قالوا : الله أعلم ، فغضب عمر ، وقال : قولوا : نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء ، فقال : يا بن أخي : قل ولا تحقِّر نفسك ، قال ابن عباس : ضربت مثلاً لعملٍ ، قال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عباس : لرجل غني عمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله. (٣)

وحصيلة البحث : إنّ التمثيل الوارد في القرآن الكريم ، تارة يقترن بكلمة المثل ، وأخرى يقترن به مع لفظ الضرب حيث اختار سبحانه مادة الضرب لقسم كبير من أمثال القرآن ، وثالثة بحرف كاف التشبيه

ورابعة بذكر مادة المثل بدون اقتران بواحد منهما مثل قوله : (**وَالْبَلَدُ الطَّيّبُ يخْرجُ نَباتهُ بِإِذْنِ رَبّهِ وَالّذِي خَبُثَ لا يَخرجُ إلا نَكِداً**) (٤).

---

(١) مجمع البيان : ٢ / ٤٣٢.

(٢) البقرة : ٢٦٦.

(٣) صحيح البخاري : التفسير : تفسير سورة البقرة ، باب قوله : (**أيودّ أحدكم**) رقم. ٤٢٦٤، ط:دار ابن كثير . دمشق . ١٩٩٠م

(٤) الأعراف : ٥٨.

الفصل الثالث

ذكر الآيات التي جاء فيها ضرب المثل في القرآن

١. (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ * صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُون) (١).

٢. (أَوْ كَصَيّبٍ مِنَ السَّماءِ فيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوتِ وَاللهُ مُحيطٌ بِالكافِرين * يَكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوا فيهِ وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَلَو شاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلى كُلّ شَيْءٍ قَدير) (٢).

٣. (إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمّا الّذينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبّهِمْ وَأَمّا الّذينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ماذا أَرادَ اللهُ بهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثيراً وَيَهْدي بِهِ كَثيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إلا الفاسِقينَ * الّذينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ميثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرونَ) (٣).

٤. (وَمَثَلُ الّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الّذي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إلاّ دُعاءً وَنِداءً صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُون). (٤)

---

(١) البقرة : ١٧ . ١٨.

(٢) البقرة : ١٩ . ٢٠.

(٣) البقرة : ٢٦ . ٢٧.

(٤) البقرة : ١٧١.

٥. (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَما يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْساءُ وَالضَّرّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ). (١)

٦. (أَو كَالّذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قالَ أَنّي يُحْيي هذهِ اللهُ بَعْدَ مَوتِها فَأَماتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوماً أَوْ بَعْضَ يَومٍ قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُر إلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَ انْظُرْ إِلى حِمارِكَ وَلنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنّاسِ وَ انْظُرْ إِلى العِظامِ كَيْفَ نَنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمّا تَبَيّنَ لَهُ قالَ أَعلَم أَنّ الله عَلى كُلّ شَيءٍ قَديرٌ). (٢)

٧. (مَثَلُ الّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فـي كُـلّ سُـنْبُلَةٍ مِائـةُ حَبَّـةٍ وَاللهُ يُضـاعِفُ لِمَـنْ يَشـاءُ وَاللهُ واسِـعٌ عَليمٌ). (٣)

٨. (يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالمَنّ وَالأذى كَالّذي يُنْفِقُ مالَهُ رئاءَ النّاسِ ولا يُؤمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَليهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمّا كَسَبُوا وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَومَ الكافِرينَ). (٤)

٩. (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلّ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ). (٥)

---

(١) البقرة : ٢١٤.
(٢) البقرة : ٢٥٩
(٣) البقرة : ٢٦١.
(٤) البقرة : ٢٦٤.
(٥) البقرة : ٢٦٥.

١٠. (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ لَهُ فيها مِنْ كُلّ الثَّمَراتِ وَأَصابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذلِكَ يُبَيّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُون). (١)

١١. (إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ). (٢)

١٢. (مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ في هذهِ الحَيوةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ ريحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ). (٣)

١٣. (أَوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيّنَ لِلْكافِرينَ ما كانُوا يَعمَلُون) (٤).

١٤. (وَالبَلَدُ الطَّيّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرّفُ الآياتِ لِقَومٍ يَشْكُرُونَ) (٥).

١٥. (وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الغاوِينَ * وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ

(١) البقرة : ٢٦٦.
(٢) آل عمران : ٥٩.
(٣) آل عمران : ١١٧.
(٤) الأنعام ١٢٢:
(٥) الأعراف : ٥٨.

ذلِكَ مَثَلُ القَومِ الَّذينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ* ساءَ مَثَلاً القَومُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ) [١].

١٦. (إِنَّما مَثَلُ الحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ مِمّا يَأْكُلُ النّاسُ وَالأَنْعامُ حَتّى إِذا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرنا لَيلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصيداً كأَنْ لَمْ تغنَ بِالأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ) [٢].

١٧. (مَثَلُ الفَريقَينِ كَالأَعْمى وَالأَصَمِّ وَالْبَصيرِ وَالسَّميعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ) [٣].

١٨. (لَهُ دَعْوَةُ الحَقّ وَالَّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إلاّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ وَمَا دُعاءُ الكَافِرِينَ إلا في ضَلالٍ) [٤].

١٩. (أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيهِ فِي النّار ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ في الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ) [٥].

٢٠. (مَثَلُ الْجَنَّةِ الّتي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الكافِرِينَ النّارُ) [٦].

---

(١) الأعراف : ١٧٥ . ١٧٧.

(٢) يونس : ٢٤.

(٣) هود : ٢٤.

(٤) الرعد : ١٤.

(٥) الرعد : ١٧

(٦) الرعد : ٣٥.

٢١. (مَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا بِرَبّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرّيحُ في يَومٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمّا كَسَبُوا على شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعيد) [١].

٢٢. (أَلَمْ تَرَ كيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيّبَةً كَشَجَرةٍ طَيّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ * تُؤْتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ بِإِذْنِ رَبّها وَيَضْرِبُ اللهُ الأمْثالَ لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون) [٢].

٢٣. (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبيثةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوقِ الأرْضِ مَالَها مِنْ قَرار) [٣].

٢٤. (وَسَكَنْتُمْ في مَساكِنِ الّذينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الأمْثالَ) [٤].

٢٥. (لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَة مَثَلُ السَّوْءِ وَللهِ المَثَلُ الأعلى وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) [٥].

٢٦. (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ على شَيءٍ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوونَ الحَمدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ) [٦].

٢٧. (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شيءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَولاهُ أَيْنَمَا يُوَجّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [٧].

---

(١) إبراهيم : ١٨.
(٢) إبراهيم : ٢٤ . ٢٥.
(٣) إبراهيم : ٢٦.
(٤) إبراهيم : ٤٥.
(٥) النحل : ٦٠
(٦) النحل : ٧٥.
(٧) النحل : ٧٦.

٢٨. (وَلا تَكُونُوا كَالَّتي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ما كُنْتُمْ فيهِ تَخْتَلِفُونَ) [١].

٢٩. (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذاقَهَا اللهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالخَوفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ). [٢]

٣٠. (وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لاَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُما زَرْعاً * كِلْتَا الْجَنَّتينِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيئاً وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَرَاً * وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبيدَ هذه أَبَداً * وَما أَظُنُّ السّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبّي لأجِدَنَّ خَيراً مِنْها مُنْقَلَباً * قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالّذي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلاً * لَكِنّا هُوَ اللهُ رَبّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبّي أَحَداً * وَلَولا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلاّ باللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً * فَعَسى رَبّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتصبِحَ صَعيداً زَلَقاً* أَوْ يُصْبِحَ مَاؤهَا غَوراً فَلَنْ تَسْتَطيعَ لَهُ طَلَباً * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَيَقُولُ يا لَيْتَني لَمْ أُشْرِكَ بِرَبّي أَحَداً * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ

(١) النحل : ٩٢.

(٢) النحل : ١١٢.

وَمَا كَانَ مُنْتَصراً * هُنالِكَ الولايَةُ للهِ الحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً). (١)

٣١. (وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنْيَا كَماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشيماً تَذْرُوهُ الرّياحُ وَكانَ اللهُ عَلى كُلّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً). (٢)

٣٢. (يا أَيُّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنّ الّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ). (٣)

٣٣. (اللهُ نُورُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ المِصْباحُ في زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوكَبٌ دُرِيّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرةٍ مُبارَكةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيةٍ وَلا غَرْبِيةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ لِلنّاسِ وَاللهُ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ). (٤)

٣٤. (وَالَّذينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآن ماءً حَتّى إذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفّاهُ حِسابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الحِسابِ). (٥)

---

(١) الكهف : ٣٢ . ٤٤.
(٢) الكهف : ٤٥.
(٣) الحج : ٧٣.
(٤) النور : ٣٥.
(٥) النور : ٣٩.

٣٥. (أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوجٌ مِنْ فَوقِهِ مَوجٌ مِنْ فَوقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوقَ بَعْضٍ إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ). (١)

٣٦. (مَثَلُ الَّذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَولياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ). (٢)

٣٧. (وَهُوَ الَّذي يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلى فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزيزُ الْحَكيمُ). (٣)

٣٨. (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ في ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَعقِلُونَ). (٤)

٣٩. (وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ فيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون). (٥)

٤٠. (وَما يَسْتَوي الأَعْمى وَالْبَصيرُ * وَلا الظُّلُماتُ وَلاَ النُّورُ * وَلا الظِّلُّ وَلا الحَرُورُ * وَما يَسْتَوِي الأَحْياءُ وَلا الأَمْواتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ). (٦)

٤١. (وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَها الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قالُوا ما

(١) النور: ٤٠.
(٢) العنكبوت : ٤١. / ٦. يس : ١٣ . ٣٠.
(٣) الروم : ٢٧.
(٤) الروم : ٢٨.
(٥) فاطر : ١٢.
(٦) فاطر : ١٩ . ٢٢.

أَنْتُمْ إلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إلاّ تَكْذِبُونَ * قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنّا إِلَيْكُمْ لمُرسَلُونَ * وَما عَلَيْنا إلا الْبَلاغُ الْمُبينُ * قالُوا إِنّا تَطَيَّرنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمسَّنَكُمْ مِنّا عَذابٌ أَليمٌ * قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَومٌ مُسْرِفُونَ * وَجاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قالَ يا قَومِ اتَّبِعُوا الْمُرسَلينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَماليَ لا أَعْبُدُ الَّذي فَطَرَني وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنّي شَفاعَتُهُم شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونَ * إِنّي إِذاً لَفي ضَلالٍ مُبينٍ * إِنّي آمَنْتُ بِرَبّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَومي يَعْلَمُونَ * بِما غَفَرَ لي رَبّي وَجَعَلَني مِنَ الْمُكْرَمين * وَما أَنْزَلْنا عَلى قَومِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ من السَّماءِ وَما كُنّا مُنْزِلينَ * إِنْ كانَتْ إلا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ* يا حَسْرَةً عَلَى العِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ[1]

٤٢. (أَوَلَمْ يَرَ الإنْسانُ أَنّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبينٌ * وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظامَ وَهِيَ رَميمٌ * قُلْ يُحْيِيها الَّذي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وهو بكل خلق عليم[2]

٤٣(ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فيهِ شُركاءُ مُتَشاكِسونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثلاً الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ) [3].

٤٤. (وَإِذا بُشّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظيمٌ * أَوَ مَنْ يُنَشَّوُا في الحِلْيَةِ وَهُوَ في الخِصامِ غَيْرُ مُبينٍ) [1].

(١) يس:١٣:٢٨

(٢) يس : ٧٧ . ٧٩

(٣) الزمر : ٢٩.

٤٥. (فَلَمّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعين * فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً للآخِرِينَ) (٢).

٤٦. (وَلَما ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذا قَومُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقالُوا أَآلهتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إلاّ جَدلاً بَلْ هُمْ قَومٌ خَصِمُونَ * إنْ هُوَ إلاّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَني إسْرائيلَ) (٣).

٤٨. (ذلِكَ بِأَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الباطِلَ وَأَنَّ الَّذينَ آمَنُوا اتَّبعُوا الحَقَّ مِنْ رَبّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنّاسِ أَمْثالَهُمْ) (٤).

٤٩. (مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَير آسنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّر طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّارِبينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفّى وَلَهُمْ فيها مِنْ كُلّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النّارِ وَسُقُوا ماءً حَميماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ) (٥).

٥٠. (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذينَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلى الكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً سيماهُمْ في وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ في التَّوراةِ وَمَثَلُهُمْ في الإنْجِيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزرّاعَ لِيَغيظَ بِهِمُ الكُفّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظيماً) (٦).

---

(١) الزخرف : ١٧ . ١٨.

(٢) الزخرف : ٥٥ . ٥٦.

(٣) الزخرف : ٥٧ . ٥٩.

(٤) محمد : ٣.

(٥) محمد : ١٥.

(٦) الفتح : ٢٩.

٥١. (اعْلَمُوا أَنَّما الحَياةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الأَمْوالِ وَالأولادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وفِي الآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ وَما الحَياةُ الدُّنيا إلا مَتاعُ الْغُرُورِ) [١].

٥٢. (كَمَثَلِ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَريباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) [٢].

٥٣. (كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ للإِنْسانِ اكْفُر فَلَمّا كَفَرَ قالَ إِنّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنّي أَخافُ اللهَ رَبَّ الْعالَمينَ) [٣].

٥٤. (لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصدّعاً مِنْ خَشيةِ اللهِ وَتِلْكَ الأمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [٤].

٥٥. (مَثَلُ الَّذينَ حُمّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ القَومِ الَّذينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدي القَومَ الظّالِمينَ) [٥].

٥٦. (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَ امْرَأَة لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَينِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقيلَ ادْخُلا النّارَ مَعَ الدّاخِلينَ) [٦].

---

(١) الحديد :٢٠

(٢) الحشر : ١٥.

(٣) الحشر : ١٦.

(٤) الحشر : ٢١.

(٥) الجمعة : ٥.

(٦) التحريم : ١٠.

٥٧. (وَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلّذِينَ آمَنُوا امْرأَةَ فِرْعَونَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لي عِنْدَكَ بَيْتاً في الجَنَّةِ وَنَجّني مِنْ فِرْعَونَ وَعَمَلِهِ وَنَجّني مِنَ الْقَومِ الظّالِمينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرانَ الّتي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فيهِ مِنْ رُوحِنا وَصَدَّقَتْ بِكَلماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ وَكانَتْ مِنَ القانِتين) [١].

٥٨. (وَما جَعَلْنا أَصحابَ النّارِ إلا مَلائِكةً وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إلاّ فِتْنَةً لِلّذينَ كَفَروا لِيَسْتَيقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذينَ آمَنُوا إيماناً ولا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الكتابَ وَالْمُوْمِنُونَ وَلِيَقولَ الّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالكافِرُونَ ماذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما يَعْلَمُ جُنودَ رَبِّكَ إلا هُوَ وَما هِيَ إلا ذِكْرى لِلْبَشَرِ) [٢].

هذا ما ذكره د/محمد الصغير في كتابه (الصورة الفنية في المثل القرآني) والذي سبق لي أن أشرت إليه في الهامش من قبل وسوف أذكره . في الفهارس . إن شاء الله .، ولكنّه غير جامع إذ هناك آيات تتضمن تمثيلاً وإن لم يشتمل على لفظ المثل أو حرف التشبيه ولكن التمثيل برَّمة أركانه موجود فيها ، قال سبحانه : (الّذينَ يَأكُلُونَ الرّبا لا يَقُومُونَ إلاّ كَما يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسّ) [٣] فشبّه آكل الربا بمن مسَّه الجن فصار مذعوراً لا يملك عقله ونفسه. إلى غير ذلك من الآيات.

قال بعض العلماء : ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أُمور كثيرة : التذكير ، والوعظ ، والحث والزجر ، والاعتبار ، والتقرير ،

---

(١) التحريم : ١١ . ١٢.

(٢) المدثر : ٣١.

(٣) البقرة : ٢٧٥. /٢. رياض السالكين :(٥ / ٤٦١) تأليف : علي خان المدني . ط: مؤسسة النشر الإسلامية . العراق . بدون.

وتقريب المراد للعقل ، وتصويره بصورة المحسوس ، فانّ الأمثال تصوّر المعاني بصورة الأشخاص ، لأنّها أثبت في الذهن لاستعانة الذهن فيها بالحواس ، ومن ثمّ كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجليّ والغائب بالشاهد. وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر ، وعلى المدح والذم ، وعلى الثواب والعقاب ، وعلى تفخيم الأمر وتحقيره ، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله. (٢)

ثمّ إنّ الآيات التي جاء فيها التصريح بالمثل ، عبارة عن الآيات التالية :

١. (**وَلَقَدْ صَرَّفنا لِلنّاسِ في هذا القُرآنِ مِنْ كُلّ مَثَل**) (١).
٢. (**وَلَقَدْ صَرّفنا في هذَا القُرآنِ لِلنّاسِ مِنْ كُلّ مَثَل**) (٢).
٣.(**وَللهِ الْمَثَلُ الأعْلى وَهُوَ الْعَزيزُ الحَكِيمُ**) (٣).
٤. (**وَلَهُ المَثَلُ الأعْلى فِي السَّمواتِ وَالأرْضِ وَهُوَ الْعَزيزُ الْحَكيم**) (٤).
٥. (**وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنّاسِ في هذا الْقُرآنِ مِنْ كُلّ مَثَل**) (٥).
٦.(**وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنّاسِ في هذا القُرآن مِنْ كُلّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذكَّرون**) (٦).
٧. (**كَذلِكَ يَضْرِب اللهُ الأمْثال**) (٧).
٨. (**وَيَضْرِبُ اللهُ الأمْثالَ لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذكَّرون**) (٨).

---

(١) الإسراء : ٨٩.
(٢) الكهف : ٥٤.
(٣) النحل : ٦٠.
(٤) الروم : ٢٧.
(٥) الروم : ٥٨.
(٦) الزمر : ٢٧.
(٧) الرعد : ١٧.
(٨) إبراهيم : ٢٥.

٩. (**وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِم وَضَرَبْنا لَكُمُ الأمْثال**) [١].

١٠. (**وَيَضْرِبُ اللهُ الأمْثالَ لِلنّاسِ وَاللهُ بِكُلّ شَيءٍ عَليم**) [٢].

١١. (**وَتِلْكَ الأمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ وَما يَعْقِلُها إلا الْعالمون**) [٣].

١٢. (**وَتِلْكَ الأمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتفَكَّرُونَ**) [٤].

١٣. (**كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنّاسِ أَمْثالَهُمْ**) [٥].

١٤. (**وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبيّناتٍ وَمَثلاً مِنَ الّذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوعِظَةً لِلْمُتَّقين**) [٦].

١٥. (**وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاّ جِئْناكَ بِالحَقّ وَأَحْسَنَ تَفسيراً**) [٧].

ولكن الأمثال أعم مما ورد فيه لفظ المثل أو كاف التشبيه كما مرّ.

وذكرته آنفاً . وأعتذر من شيوخي الأجلاء والقارئين لهذا البحث .

عن دخولي في تفاصيل ذلك الأمر حتى لا يطول بي البحث ، وسوف أذكر في فصل قادم . إن شاء الله . شرح وبيان لبعض أمثلة القرآن، وسوف أحاول دراستها مرتبة حسب ورودها في السور القرآنية بترتيبها . والله أسأل التوفيق والسداد .

---

(١) إبراهيم : ٤٥.

(٢) النور : ٣٥.

(٣) العنكبوت : ٤٣.

(٤) الحشر : ٢١.

(٥) محمد : ٣.

(٦) النور : ٣٤.

(٧) الفرقان : ٣٣.

الفصل الرابع

الآيات التي تجري مجرى المثل

القرآن الكريم كلّه حكمة وعظة ، بلاغ وعبرة ، وقد قام غير واحد من المحقّقين باستخراج الحكم الواردة فيه التي صارت أمثالاً سائرة عبر القرون لتداولها على الألسن في حياتهم العملية. وقد سبق منّا القول إنّ هذه الآيات لم تنزل بوصف المثل ، لأنّ المثل عبارة عن كلام تداولته الألسن فصار به أمثالاً سائرة دارجة ، ومن الواضح أنّ الحكم الواردة في القرآن نزلت من دون سبق مثال لها ، فلم تكن يوم نزولها موصوفة بوصف المثل ، وانّما أُضفي عليها هذا الوصف عبر مرّ الزمان وتداول الألسن.

ثم إنّ جعفر بن شمس الخلافة[١](المتوفّى عام ٢٢٦ هـ) عقد باباً في ألفاظ القرآن الجارية مجرى المثل ، ونقله السيوطي عنه في كتاب « الإتقان » ، وقال : وهذا هو النوع البديعي المسمّى بإرسال المثل.

وإليك ما أورده من هذا الباب :

١. **(وَعَسى أَنْ تكرَهُوا شَيئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)** [٢].
٢. **(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَة)** [٣].
٣. **(لا يُكَلّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها)** [٤].
٤. **(لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّون)** [٥].
٥. **(ما عَلى الرَّسُولِ إلا البَلاغُ)** [٦].

---

(١) هو أبو الفضل جعفر بن محمد شمس الخلافة الأفضلي البصري المتولّد عام ٥٤٣ هـ ، ترجمه ابن خلكان في « وفيات الأعيان » مؤلف كتاب « الآداب » وهو كتاب وجيز في الحكم والأمثال من النثر والنظم طبع في مصر عام ١٣٤٩ هـ.

(٢) البقرة : ٢١٦.

(٣) البقره : ٢٤٩.

(٤) البقرة : ٢٨٦.

(٥) آل عمران : ٩٢.

(٦) المائدة : ٩٩.

٦. (قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّب) [١].
٧. (لِكُلّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٍ) [٢].
٨. (وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيراً لأسمَعَهُمْ) [٣].
٩. (ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيل) [٤].
١٠. (الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قبلُ) [٥].
١١. (أَلَيْسَ الصُّبحُ بِقَرِيب) [٦].
١٢. (قُضِيَ الأمْرُ الَّذى فِيهِ تَسْتَفْتِيان) [٧].
١٣. (الآن حَصْحَصَ الحَقّ) [٨].
١٤. (قُلْ كُلّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِه) [٩].
١٥. (ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداك) [١٠].
١٦. (ضَعُفَ الطّالِبُ وَالْمَطْلُوب) [١١].
١٧. (كُلُّ حِزبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُون) [١٢].
١٨. (ظَهَرَ الْفَسادُ فِي البَرّ وَالْبَحْر) [١٣].
١٩. (وَقَليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُور) [١٤].
٢٠. (وَحيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُون) [١٥].

---

(١) المائدة : ١٠٠.
(٢) الأنعام : ٦٧.
(٣) الأنفال : ٢٣.
(٤) التوبة : ٩١.
(٥) يونس : ٩١.
(٦) هود : ٨١.
(٧) يوسف : ٤١.
(٨) يوسف : ٥١.
(٩) الإسراء : ٨٤.
(١٠) الحج : ١٠.
(١١) الحج : ٧٣.
(١٢) الروم : ٣٢.
(١٣) الروم : ٤١.
(١٤) سبأ : ١٣.
(١٥) سبأ : ٥٤.

٢١. (**وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبير**) [١].
٢٢. (**وَلا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إلا بِأَهْلِهِ**) [٢].
٢٣. (**وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ**) [٣].
٢٤. (**لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُون**) [٤].
٢٥. (**وَقَليلٌ ما هُمْ**) [٥].
٢٦. (**لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ الله كاشِفَة**) [٦].
٢٧. (**هَلْ جَزاءُ الإحْسان إلاّ الإحْسان**) [٧].
٢٨(**فَاعْتَبِرُوا يا أُولي الأبْصار**) [٨].
٢٩. (**تَحْسَبُهُمْ جَميعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتّى**) [٩].
٣٠. (**كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَة**) [١٠].

هذا ما نقله السيوطي في « الإتقان » عن كتاب « الآداب » لجعفر بن شمس الخلافة ، ولكن المذكور في كتاب « الآداب » ما يناهز ٦٩ آية ، وقد صارت هذه الآيات في عصره أمثالاً سائرة[١١].

ثمّ إنّ شهاب الدين محمد بن أحمد أبا الفتح الابشيهي المحلي (٧٩٠ . ٨٥٠ هـ) في كتابه « المستطرف في كل فن مستظرف » ذكر من حِكم القرآن التي تجري مجرى الأمثال أكثر مما نقله السيوطي في إتقانه عن كتاب الآداب.

---

(١) فاطر : ١٤.
(٢) فاطر : ٤٣,٢٨
(٣) يس : ٨٧ ، ١٧
(٤) الصافات:
(٥) ص:٢٤
(٦) النجم : ٥٨.
(٧) الرحمن : ٦٠.
(٨) الحشر : ٢.
(٩) الحشر : ١٤.
(١٠) المدثر : ٣٨.
(١١) الإتقان : ٢ / ١٠٤٦النوع السادس والستون.

قال صاحب المستطرف : إنَّ الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه ، وحلّي بجواهره كتابه ، وقد نطق كتاب الله تعالى وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها ، ولم يخلُ كلام سيدنا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . عنها ، وهو أفصح العرب لساناً وأكملهم بياناً ، فكم في إيراده وإصداره من مثل يعجز عن مباراته في البلاغة كلّ بطل ، .... فمن أمثال كتاب الله ، قوله تعالى : **(لَنْ تَنالُوا البِرّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّون)** ، **(الآن حَصْحَصَ الحَق)** ، و **(قُضِي الأمْرُ الذي فيهِ تَسْتَفْتِيان)** إلى آخر ما ذكره. [١] ثمّ إنّ بعض من ألّف في أمثال القرآن ، استدرك عليهما الحِكم التي صارت مثلاً بين الناس والتي يربو عددها على ٢٤٥ آية. [٢]

كما أنّ الدكتور محمد حسين الصغير ذكر في خاتمة كتابه من هذه المقولة فبلغ ٤٩٥ آية[٣].ولكن الذي فاتهم هو التركيز على أنَّ هذه الآيات لم تكن أمثالاً يوم نزولها بل كانت حِكماً وإنّما جاءت مثلاً حسب مرّ الزمان.

وأخيراً نزيد أنّ هناك آيات أخرى غير ما تقدَّم أكثر تداولاً على الألسن في أكثر البلاد الإسلامية نشير إلى قسم منها ، وربما يوجد بعض منها فيما ذكره مؤلف الآداب ، وهذه الآيات هي :

١. **(كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا)** [٤].
٢. **(هذا فراقٌ بَيْنِي وَبَيْنِك)** [٥].
٣. **(نُورٌ عَلى نُور)** [٦].

---

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف للأبشيهي . رحمه الله . (١ / ٢٧) ط: المكتبة التوفيقية . القاهرة . بدون.

(٢) أمثال القرآن ، علي أصغر حكمت. ص(٣٥) ط: دار الفكر . بيروت .١٩٨٥م

(٣) الصورة الفنّية في المثل القرآني : ٣٨٧ . ٤٠٢.

(٤) الأعراف : ٣١.

(٥) الكهف : ٧٨.

(٦) النور : ٣٥.

٤. (وَ ما عَلى الرَّسُولِ إلاّ البَلاغ) [١].
٥. (يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيّتِ وَيُخْرِجُ المَيّتَ مِنَ الحَيّ) [٢].
٦. (هَلْ يَسْتَوي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالّذِينَ لا يَعْلَمُون) [٣].
٧. (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيدِيهِمْ) [٤].
٨. (هَلْ جَزاء الإحْسانِ إلاّ الإحسانُ) [٥].
٩. (لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُون) [٦].
١٠. (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِين) [٧].

هذه آيات عشر صارت مثلاً سائراً بين أكثر المسلمين.

ثم إنّ المحقّق بهاء الدين العاملي (٩٥٣ . ١٠٣٠ هـ) عقد فصلاً تحت عنوان « فيما ورد من كتاب الله تعالى مناسباً لكلام العرب » ويريد بذلك انّ هناك معادلات في كلام العرب لما جاء في القرآن من الحكم ، وذكر الآيات والأمثال التالية :

أ : العرب تقول في وضوح الأمر : « قد وضح الصبح لذي عينين ».
وقال الله تعالى : (الآن حَصْحَصَ الحَقّ) [٨].

ب : وتقول العرب في فوات الأمر : « سبق السيف العذل ».
قال الله تعالى : (قُضِيَ الأمْرُ الّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيان) [٩].

ج : وتقول في تلافي الإساءة « عاد غيث على ما أفسد ».
قال الله تعالى : (مكانَ السَّيئةِ الحَسنة) [١٠].

---

(١) النور : ٥٤.
(٢) الروم : ١٩.
(٣) الزمر : ٩.
(٤) الفتح : ١٠.
(٥) الرحمن : ٦٠.
(٦) الصف : ٢.
(٧) الكافرون : ٦.
(٨) يوسف : ٥١.
(٩) يوسف : ٤١.
(١٠) الأعراف : ٩٥.

د : وتقول في الإساءة لمن لا يقبل الإحسان : « اعط أخاك ثمرة فإن أبي فجمرة ».

وقال تعالى : **(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِين)** (١).

هـ : وتقول في فائدة المجازاة : « القتل أنفى للقتل ».

وقال تعالى : **(وَلَكُمْ فِي القِصاصِ حَياةٌ يا أُولي الألْباب)** (٢).

و : وتقول في اختصاص الصلح : « لكّل مقام مقال ».

وقال تعالى : **(لِكُلّ نَبأٍ مُسْتَقر)** (٣)(٤)

ثمّ إنّ بهاء الدين العاملى عاد إلى الموضوع في كتابه « المخلاة » ونقل شيئاً من أمثال العرب التي استفادها العرب من القرآن الكريم ، فأوضح أنّ القرآن هو المنبع المهم لهذه الأمثال ، قال :

أ : قولهم : ما تزرع تحصد : **(مَنْ يَعْمَل سُوءاً يُجْزَ بِهِ)** (٥).

ب : قولهم : للحيطان آذان : **(وَفيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ)** (٦).

ج : قولهم : احذر شرَّ من أحسنت إليه : **(وَما نَقَمُوا إلاّ أنْ أغْناهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ)** (٧).

د : وقولهم : لا تلد الحيّة إلاّ حيّة : **(وَلا يَلِدُوا إلاّ فاجِراً كفّاراً)** (٨) (٩)

---

(١) الزخرف : ٣٦.

(٢) البقرة : ١٧٩.

(٣) الأنعام : ٦٧.

(٤) أسرار البلاغة : ٦١٦ . ٦١٧.

(٥) النساء : ١٢٣.

(٦) التوبة : ٤٧.

(٧) التوبة : ٧٤.

(٨) نوح : ٢٧.

(٩) المخلاة (ص ٣٠٧) تأليف بهاء الدين محمد بن الحسين العاملي . ط: دار الكتب العلمية . بيروت . ١٩٩٧م

الفصل الخامس

شرح بعض الأمثال القرآنية

المثل الأوّل (سورة البقرة)

قال سبحانه : (**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنّا وَإِذَا خَلَوْا إِلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون * اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُون * أُولئِكَ الَّذينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدَى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدين * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوقَدَ نَاراً فَلَمّا أَضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ * صُمّ بُكمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُون**) [1]. [1]

تفسير الآيات

الوقود . بفتح الواو . الحطب ، استوقد ناراً ، أو أوقد ناراً ، كما يقال: استجاب بمعنى أجاب. افتتح كلامه سبحانه في سورة البقرة بشرح حال طوائف ثلاث :

الأولى : المؤمنون ، واقتصر فيهم على آيتين.

الثانية : الكافرون ، واقتصر فيهم على آية واحدة.

الثالثة : المنافقون ، وذكر أحوالهم وسماتهم ضمن اثنتى عشرة آية.

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على أنّ النفاق بؤرة الخطر ، وانّهم يشكلون خطورة جسيمة على المجتمع الإسلامي. وقد مثّل بمثلين يوقفنا على طبيعة نواياهم الخبيثة وما يبطنون من الكفر. بدأ كلامه سبحانه في حقهم بأنّ المنافقين هم الذين يبطنون الكفر ويتظاهرون بالإيمان (**وَإذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وَإذا خَلَوا إلى شَياطِينِهِمْ قالُوا**

(١) البقرة :١٧

إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون). ثمّ إنّه سبحانه يردّ عليهم ، بقوله : (**اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُون**) والمراد أنّه سبحانه يجازيهم على استهزائهم. ثمّ وصفهم بقوله : (**أُولئِكَ الَّذينَ اشْتَرَوا الضَّلالَةَ بِالهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدين**) ، أي أخذوا الضلالة وتركوا الهدى واستبدلوا الكفر بالإيمان ، فلم يكونوا رابحين في هذه التجارة والاستبدال ، ثمّ وصفهم بالتمثيل الآتي : نفترض أنّ أحداً ، ضلّ في البيداء وسط ظلام دامس وأراد أن يقطع طريقه دون أن يتخبّط فيه ، ولا يمكن أن يهتدي . والحال هذه . إلاّ بإيقاد النار ليمشي على ضوئها ونورها ويتجنب المزالق الخطيرة ، وما أن أوقد النار حتى باغتته ريح عاصفة أطفأت ما أوقده ، فعاد إلى حيرته الاَولى. فحال المنافقين كحال هذا الرجل حيث إنّهم آمنوا بادئَ الأمر واستناروا بنور الإيمان ومشوا في ضوئه ، لكنّهم استبدلوا الإيمان بالكفر فعمَّهم ظلام الكفر لا يهتدون سبيلاً.

هذا على القول بأنّ المنافقين كانوا مؤمنين ثمّ عدلوا إلى الكفر ، وأمّا على القول بعدم إيمانهم منذ البداية ، فالنار التي استوقدوها ترجع إلى نور الفطرة الذي كان يهديهم إلى طريق الحق ، ولكنّهم أخمدوا نورها بكفرهم بآيات الله تبارك وتعالى.

والحاصل : أنّ حال هؤلاء المنافقين لمّا أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر كحال من ضلَّ في طريقه وسط الظلام في مكان حافل بالأخطار فأوقد ناراً لإنارة طريقه فإذا بريح عاصفة أطفأت النار وتركته في ظلمات لا يهتدي إلى سبيل.

وهذا التمثيل الذي برع القرآن الكريم في تصويره يعكس حال المنافقين في عصر الرسالة ، ومقتضى التمثيل أن يهتدي المنافقون بنور

الهداية فترة من الزمن ثمّ ينطفئ نورها بإذن الله سبحانه ، وبالتالي يكونوا صمّاً بكماً عمياً لا يهتدون ، فالنار التي اهتدى بها المنافقون عبارة عن نور القرآن ، وسنّة الرسول ، حيث كانوا يتشرّفون بحضرة الرسول ويستمعون إلى كلامه وحججه في بيانه ودلائله في إرشاده وتلاوته لكتاب الله ، فهم بذلك كمن استوقد ناراً للهداية ، فلمّا أضاءت لهم مناهج الرشد ومعالم الحقّ تمرّدوا على الله بنفاقهم ، فخرجوا عن كونهم أهلاً للتوفيق والتسديد ، فأوكلهم الله سبحانه إلى أنفسهم الأمّارة وأهوائهم الخبيثة ، وعمّتهم ظلمات الضلال بسوء اختيارهم.

وعلى هذا ابتدأ سبحانه بذكر المثل بقوله : (**مَثَلُهمْ كَمَثَلِ الَّذى استوقَد ناراً فلَمّا أضاءَت ما حوله**) وتمّ المثل إلى هنا.

ثمّ ابتدأ بذكر الممثل بقوله : (**ذَهَبَ الله بِنُورهِمْ وَتَرَكَهُمْ في ظُلماتٍ لا يُبصرون**).

فإن قلت : فعلى هذا فما هو جواب « لمّا » في قوله (**فلمّا أضاءَت**) ؟

قلت : الجواب محذوف ، لأجل الوجازة ، وهو قوله « خمدت ».

فإن قلت : فعلى هذا فبم يتعلّق قوله : (**ذهب الله بنورهم**) ؟

قلت : هو كلام مستأنف راجع إلى بيان حال الممثل ، وتقدير الكلام هكذا : فلَمّا أضاءَت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام متحيرين متحسّرين على فوات الضوء ، خائبين بعد الكدح من إيقاد النار.

فحال المنافقين كحال هؤلاء ، أشعلوا ناراً ليستضيئوا بنورها لكن (**ذَهَب الله بنورهم وتَرَكَهُمْ في ظُلمات لا يُبصرون**). وبكلمة موجزة :

ما ذكرنا من الجمل هو المفهوم من الآية ، والإيجاز بلا تعقيد من شؤون البلاغة[١].

فقوله سبحانه : (**ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِم**) بمعنى أنّ ذلك كان نتيجة نفاقهم وتمرّدهم وبالتالي تبدّد قابليتهم للاهتداء بنور الحقّ (**فَتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُون**) أي في أهوائهم وسوء اختيارهم يتخبّطون في ظلمات الضلال ، لا يبصرون طريق الحقّ والرشاد. ترى أنّ التمثيل يحتوي على معاني عالية وكثيرة بعبارات موجزة ، ولو حاول القرآن أن يبيّن تلك المعاني عن غير طريق التمثيل يلزم عليه بسط الكلام كما بسطناه ، وهذا من فوائد المثل ، حيث يؤدي معاني كثيرة بعبارات موجزة.

ثمّ إنّه سبحانه يصفهم بأنّهم لما عطّلوا آذانهم فهم صمّ ، وعطّلوا ألسنتهم فهم بكم ، وعطّلوا عيونهم فهم عمي ، قال : (**صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُون**).

والمراد من التعطيل أنّهم لم يكونوا ينتفعون بهذه الأدوات التي بها تعرف الحقائق ، فما كانوا يسمعون آيات الله بجدٍّ ، ولا ينظرون إلى الدلائل الساطعة للنبوة إلاّ من خلال الشك[٢].

إلى هنا تمّ استعراض حال المنافقين بحال من أوقد ناراً للاستضاءة، ولكن باءت مساعيه بالفشل.

---

(١) انظر الكشاف : ١ / ١٥٣.

(٢) انظر مجمع البيان : ١ / ٥٤ ؛ آلاء الرحمن في تفسير القرآن / لمحمد جواد بلاغي / ط: دار إحياء التراث العربي . بيروت . بدون(١ / ٧٣).

وانظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي(٣٦٢/١ : ٣٧٥)ط:دار صادر . بيروت . بدون . لأحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي (وقد كتب في تفسير هذا المثل بحثاً وكلاماً يعض عليه بالنواجذ . رحمه الله رحمة واسعة .

وممّا يدل على أنّ المنافقين آمنوا بالله ورسوله في بدء الأمر ثمّ طغى عليهم وصف النفاق ، قوله سبحانه : **(ذلِكَ بِأَنّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُون)** [١].

وممّا يدل على أنّ الإسلام نور ينوّر القلوب والأنفس قوله سبحانه : **(أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلاِسْلام فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولئِكَ في ضَلالٍ مُبِينٍ)** [٢].وأمّا الظلمة التي تحيط بهم بعد النفاق وتجعلهم صمّاً بكماً عمياً ، فالمراد ظلمات الضلال التي لا يبصرون فيها طريق الهدى والرشاد ، يقول سبحانه : **(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلياؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصحَابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُون)** [٣].

وبذلك ظهر أنّ تفسير الظلمة التي يستعقبها إطفاء النور بظلمة القبر وحياة البرزخ وما بعدها من مواقف الحساب والجزاء غير سديد ، وإن كان هناك ظلمة للمنافق لكنّها من نتائج الظلمة الدنيوية. فاستشهاد صاحب المنار على كون المراد هو ظلمة القبر والبرزخ بقوله سبحانه : **(يَوْمَ يَقُولُ المُنافِقُونَ وَالمُنافِقاتُ لِلَّذينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِس مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالتَمِسُوا نُوراً ...)** [٤] ليس بأمر صحيح ، والآية ناظرة إلى حياتهم الدنيوية التي يكتنفها الإيمان والنور ، ثمّ تحيط بهم الظلمة والضلالة ، ولا نظر للآية لما بعد الموت.

---

(١) المنافقون : ٣.
(٢) الزمر : ٢٢. /
(٣) البقرة : ٢٥٧.
(٤) الحديد : ١٣.

سؤال وإجابة

إنّ مقتضى البلاغة هو الإتيان بصيغة الجمع حفظاً للتطابق بين المشبّه والمشبّه به ، مع أنّه سبحانه أفرد المشبّه به (**كالذي استوقد ناراً**) وجمع المشبّه أعني قوله : (**مثلهم**) (**ذهب الله بنورهم**) ، فما هو الوجه ؟ أجاب عنه صاحب المنار بقوله : إنّ العرب تستعمل لفظ « الذي» في الجمع كلفظي « ما » و « مَن » ومنه قوله تعالى

(**وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا**) [١]وإن شاع في « الذي » الافراد ، لأنّ له جمعاً ، وقد روعي في قوله (**استوقد**) لفظه ، وفي قوله (**ذهب الله بنورهم**) معناه. والفصيح فيه مراعاة التلفظ أوّلاً ، ومراعاة المعنى آخراً ، والتفنّن في إرجاع الضمائر ضرب من استعمال البلغاء[٢].

المثل الثاني

قال سبحانه : (**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِير**) [٣].

تفسير الآيات

الصيّب : المطر ، وكلّ نازل من علوّ إلى أسفل ، يقال فيه : صاب يصوب ، وهو عطف على قوله (**كَمَثَلِ الّذي استوقَدَ ناراً**) ، ولما

---

(١) التوبة : ٦٩.

(٢) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (١ / ١٦٩) ط : دار الشعب . القاهرة بدون. / ٣ ـ البقرة : ١٩ . ٢٠.

(٣) البقرة: ٢٠

كان المثل الثاني أيضاً مثلاً للمنافقين ، فمقتضى القاعدة أن يقول « وكصيّب » مكان (**أو كصيّب**) ولكن ربّما يستعمل « أو » بمعنى « و » قال الشاعر :

نـال الخلافـة أو كانـت لـه قـدرا كمـا أتـى ربّـه موسـى علـى قـدر

ويحتمل أن يكون « أو » للتخيير ، بأن مَثَل المنافقين بموقد النار ، أو بمن وقع في المطر. والرعد : هو الصوت الذي يُسمَع في السحاب أحياناً عند تجمعه.

والبرق : هو الضوء الذي يلمع في السحاب غالباً ، وربما لمع في الآفق حيث لا سحاب ، وأسباب هذه الظواهر اتحاد شحنات السحاب الموجبة بالسالبة كما تقرر ذلك في علم الطبيعيات.

والصاعقة : نار عظيمة تنزل أحياناً أثناء المطر والبرق ، وسببها تفريغ الشحنات التي في السحاب بجاذب يجذبها إلى الأرض.

والإحاطة بالشيء : الإحداق به من جميع الجهات.

والخطف:السلب والأخذ بسرعة ومنه نهي عن الخطفة بمعنى النهب

قوله : (**وَإِذا أَظْلَم**) بمعنى إذا خفت ضوء البرق.

إلى هنا تمّ تفسير مفردات الآيات ، فلنرجع إلى بيان حقيقة التمثيل الوارد في الآية ، ليتضح من خلالها حال المنافقين ، فانّ حال المشبه يعرف من حال المشبه به ، فالمهم هو التعرّف على المشبه به.

والإمعان في الآيات يثبت بأنّ التمثيل يبتدأ من قوله (**أو كصيّبٍ من السَّماء**) وينتهي بقوله : (**وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا**).

وأمّا قوله : (**وَاللهُ محيطٌ بِالكافرين**) جملة معترضة جيء بها في أثناء التمثيل ، وقوله بعد انتهاء التمثيل : (**وَلَو شاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ**) يرجع إلى المشبه.

هذا ما يرجع إلى مفردات الآيات وكيفية انسجامها ، والمهمّ هو ترسيم ذلك المشهد الرهيب.

فلنفترض أنّ قوماً كانوا يسيرون في الفلوات وسط أجواء سادها الظلام الدامس ،فإذا بصيّب من السماء يتساقط عليهم بغزارة ، فيه رعود قاصفة وبروق لامعة تكاد تخطف الأبصار من شدتها وصواعق مخيفة ، فتولاّهم الرعب والفزع والهلع ممّا حدا بهم إلى أن يجعلوا أصابعهم في آذانهم خشية الموت للحيلولة دون سماع ذلك الصوت المخيف ، فعندئذٍ وقفوا حيارى لا يدرون أين يولّون وجوهم ، فإذا ببصيص من البرق أضاء لهم الطريق فمشوا فيه هنيئة ، فلما استتر ضوء البرق أحاطت بهم الظلمة مرة أخرى وسكنوا عن المشي.

ونستخلص من هذا المشهد أنّ الهول والرعب والفزع والحيرة قد استولى على هؤلاء القوم لا يدرون ماذا يفعلون ، وهذه الحالة برمَّتها تصدق على المنافقين ، ويمكن تقريب ذلك ببيانين :

البيان الأوّل : التطبيق المفرق لكلّ ما جاء من المفردات في المشبه به ، كالصيّب والظلمات والرعد والبرق ، على المشبَّه ، وقد ذكر المفسرون في ذلك وجوهاً أفضلها ما ذكره الطبرسي تحت عنوان الوجه الثالث.

وقال : إنّه مثل للإسلام ، لأنّ فيه الحياة كما في الغيث الحياة ، وشبه ما فيه من الظلمات بما في إسلامهم من إبطان الكفر ، وما فيه من الرعد بما في الإسلام من فرض الجهاد وخوف القتل ، وبما يخافونه من وعيد الآخرة لشكّهم في دينهم ، وما فيه من البرق بما في إظهار الإسلام من حقن دمائهم ومناكحتهم وموارثتهم ، وما فيه من الصواعق كما في

الإسلام من الزواجر بالعقاب في العاجل والآجل. ويقوى ذلك ما روي عن الحسن انّه قال : « مثل إسلام المنافق كصيّب هذا وصفه »[١].

وربّما يقرّر هذا الوجه بشكل آخر ، وهو ما أفاده المحقّق محمد جواد البلاغي (المتوفّى ١٣٥٢ هـ) فقال : الإسلام للناس ونظام اجتماعهم كالمطر الصيّب فيه حياتهم وسعادتهم في الدارين وزهرة الأرض بالعدل والصلاح والأمن وحسن الاجتماع ، ولكن معاندة المعاندين للحق وأهله جعلت الإسلام كالمطر لا يخلو من ظلمات شدائد وحروب ومعاداة من المشركين ورعود قتل وقتال وتهديدات مزعجات لغير الصابرين من ذوي البصائر والذين ارخصوا نفوسهم في سبيل الله ونيل السعادة ، وفيه بروق من النصر وآمال الظفر واغتنام الغنائم وعزّ الانتصار والمنعة والهيبة. فهم إذا سمعوا صواعق الحرب أخذهم الهلع والحذر من القتل وشبهت حالهم في ذلك بأنّهم (**يجعلون أصابعهم في آذانهم من**) أجل (**الصواعق حذر الموت**) وخوفاً من أن تخلع قلوبهم من هول أصواتها ، وسفهاً لعقولهم أين يفرون عن الموت وماذا يجديهم حذرهم والله محيط بالكافرين[٢].

وهذان التقريران يرجعان إلى التطبيق المفرّق كما عرفت.

البيان الثاني : التطبيق المركّب ، وهو إنّ الغاية من وراء هذا التمثيل أُمور ثلاثة ترجع إلى بيان حالة المنافقين. وقبل أن نستوعب البحث عنها نذكر نص كلام الزمخشري في هذا الصدد. قال الزمخشري : والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطّونه أنّ التمثيلين جميعاً من

(١) مجمع البيان : ١ / ٥٧

(٢) آلاء الرحمن : ١ / ٧٤.

جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة لا يتكلف لواحد واحد شيء يقدر شبهه به وهو القول الفصل والمذهب الجزل[١].

إذا عرفت ذلك ، فإليك البحث في الأمور الثلاثة :

الأوّل : إحاطة الرعب والهلع بالمنافقين إثر انتشار الإسلام في الجزيرة العربية ودخول القبائل فيه وتنامي شوكته ، مما أوجد رعباً في قلوبهم وفزعاً في نفوسهم المضطربة ، ويجدون ذلك بلاءً أحاط بهم كالقوم الذين يصيبهم الصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق وإليه أشار قوله سبحانه : **(أو كصيّب من السماء فيه رعدوبرق)**.

الثاني : انّ النبي لمّا كان يخبرهم عن المستقبل المظلم للكافرين والمدبرين عن الإسلام والإيمان خصوصاً بعد الموت صار ذلك كالصاعقة النازلة على رؤوسهم فكانوا يهربون من سماع آيات الله ويحذرون من صواعق براهينه الساطعة ، مع أنّ هذا هو منتهى الحماقة ، لأنّ صمّ الآذان ليس من أسباب الوقاية من أخذ الصاعقة ونزول الموت وإلى ذلك يشير قوله سبحانه : **(يَجْعَلُون أَصابعهُمْ في آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَر المَوت وَالله مُحيطٌ بِالكافِرين)**. **الثالث** : كان النبي صلى الله عليه وسلم . يدعوهم إلى أصل الدين ويتلوا عليهم الآيات البيّنة ويقيم لهم الحجج القيّمة ، فعنئذٍ يظهر لهم الحق ، فربّما كانوا يعزمون على اتّباعه والسير وراء أفكاره ، ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً ، إذ سرعان ما يعودون إلى تقليد الآباء وظلمة الشهوات والشبهات ، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه : **(يَكادُ الْبَرقُ يَخْطَفُ أَبْصارهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشوا فِيهِ وَإذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا)**.

(١) الكشاف : ١ / ١٦٢ . ١٦٣. وحاشية الشهاب الخفاجي (١ / ٣٧٥) وما بعدها .

إلى هنا تمّ التطبيق المركب لكن في مقاطع ثلاثة ثمّ إنّه سبحانه أعقب التمثيل بقوله : (**وَلَو شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأَبْصارِهِم إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدير**) أي انّه سبحانه قادر أن يجعلهم صمّاً وعمياً حتى لا ينجع فيهم وعظ واعظ ولا تجدي هداية هادٍ. وذهاب سمعهم وأبصارهم نتيجة أعمالهم الطالحة التي توصد باب التوفيق أمامهم فيصيرون صمّاً وبكماً وعمياً. ثمّ إنّ الآيات القرآنية تفسر تلك الحالة النفسانية التي كانت تسود المنافقين في مهجر النبي حيث كانوا في حيطة وحذر من أن تنزل عليهم سورة تكشف نواياهم ، كما يشير إليه قوله سبحانه : (**يَحْذَرُ المُنافِقُونَ أَن تُنَزَّل عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُون**) [1].ومن جانب آخر يشاهدون تنامي قدرة الإسلام وتزايد شوكته على وجه يستطيع أن يقطع دابرهم من أديم الأرض ، يقول سبحانه : (**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالمُرجِفُونَ فِي المَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إلاّ قَلِيلاً * مَلْعُونينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً**) [2].هذا بعض ما يمكن أن يقال حول التمثيل الوارد في حق المنافقين ولكن المهمَّ تطبيق هذا التمثيل على منافقي عصرنا ، فدراسة حال المنافقين في عصرنا هذا من أهم وظيفة المفسّر ، فانّ حقيقة النفاق واحدة ، ترجع إلى إظهار الإيمان وإبطان الكفر لغاية الإضرار بالإسلام والمسلمين ، وهم يقيمون في خوف ورعب ، وفي الوقت نفسه صم بكم عمي فهم لا يرجعون. أسأل الله السلامة لي ولسائر إخواني طلبة العلم ولكل المسلمين .

---

(١) التوبة : ٦٤.

(٢) الأحزاب : ٦٠ . ٦١.

المثل الثالث

قال سبحانه : **(إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمّا الّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبّهِمْ وَأَمّا الّذينَ كَفَروا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إلاّ الْفاسِقِينَ * الَّذينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأرضِ أُولئِكَ هُمُ الخاسِرُون)** [١].

تفسير الآيات

الحياء تغيّر وانكسار يعتري الإنسان من تخوّف ما يعاب به ويُذمّ ، يقال : فلان يستحي أن يفعل كذا ، أي أنّ نفسه تنقبض عن فعله.

فعلى هذا فالحياء من مقولة الانفعال ، فكيف يمكن نسبته إلى الله سبحانه مع أنّه لا يجوز عليه التغيّر والخوف والذم ؟

الجواب : إنّ إسناد الحياء كإسناد الغضب والرضا إلى الله سبحانه، فإنّها جميعاً تسند إلى الله سبحانه متجردة عن آثار المادة ، ويؤخذ بنتائجها ، وقد اشتهر قولهم : « خذوا الغايات واتركوا المبادئ » فالحياء يصدُّ الإنسان عن إبراز ما يضمره من الكلام ، والله سبحانه ينفي النتيجة، أي لا يمنعه شيء عن إبراز ما هو حق ، قال سبحانه : **(فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقّ)** [٢].

وأمّا ضرب المثل فقد مرّ الكلام فيه ، وقلنا : إنّ لاستخدام كلمة« ضرب المثل » في التمثيل بالأمثال وجوهاً :

منها : أنّ ضرب المثل في الكلام يذكر لحال ما يناسبها ، فيظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفياً ، وهو مأخوذ من ضرب الدراهم ، وهو حدوث أثر خاص فيها ، كأن ضرب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ

(١) البقرة : ٢٦ . ٢٧.

(٢) الأحزاب : ٥٣.

أثره في قلبه ، ولا يظهر التأثير في النفس بتحقير شيء وتقبيحه إلاّ بتشبيهه بما جرى العرف بتحقيره ونفور النفوس منه[١].

نقول : إن هذه الآيات تشي بأن المنافقين – وربما كان اليهود والمشركون – قد وجدوا في هذه المناسبة منفذا للتشكيك في صدق الوحي بهذا القرآن ، بحجة أن ضرب الأمثال هكذا بما فيها من تصغير لهم وسخرية منهم لا تصدر عن اللّه ، وأن اللّه لا يذكر هذه الأشياء الصغيرة كالذباب والعنكبوت في كلامه! .. وكان هذا طرفا من حملة التشكيك والبلبلة التي يقوم بها المنافقون واليهود في المدينة ، كما كان يقوم بها المشركون في مكة. فجاءت هذه الآيات دفعا لهذا الدس وبيانا لحكمة اللّه في ضرب الأمثال ، وتحذيرا لغير المؤمنين من عاقبة الاستدراج بها وتطمينا للمؤمنين أن ستزيدهم إيمانا. «إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما ، بَعُوضَةً فَما فَوْقَها» فاللّه رب الصغير والكبير ، وخالق البعوضة والفيل ، والمعجزة في البعوضة هي ذاتها المعجزة في الفيل[٢].البعوضة : حيوان حقير يشبه خرطومه خرطوم الفيل أجوف وله قوّة ماصة تسحب الدم ، وقد منح الله سبحانه هذا الحيوان قوة هضم ودفع كما منحه أُذناً وأجنحة تتناسب تماماً مع وضع معيشته ، وتتمتع بحساسية فائقة فهي تفر بمهارة عجيبة حين شعورها بالخطر ، وهي مع صغرها وضعفها يعجز عن دفعها كبار الحيوانات. وقد اكتشف علماء الحيوان مؤخرا انّ البعوضة قادرة على تشخيص فريستها من مسافة تقرب عن ٦٥ كيلومتراً.

« إنّما ضرب الله المثل بالبعوضة على صغر حجمها خلق الله فيها جميع ما خلق في الفيل مع كبره وزيادة عضوين آخرين ، فأراد الله سبحانه أن ينبّه بذلك المؤمنين على لطيف خلقه وعجيب صنعته »[٣].

(١) تفسير المراغى : ١ / ٧٠.

(٢) في ظلال القرآن للشيخ الشهيد / سيد قطب (٥٠/١) ط: دار الشروق . بيروت . ١٩٩٢م

(٣) مجمع البيان : ١ / ٦٧.

إلى هنا تمّ تفسير مفردات الآية ، وأمّا تفسير الآية برمّتها فقد نقل المفسرون في سبب نزولها وجهين :

الأوّل : أنّ الله تعالى لما ضرب المثلين قبل هذه الآية للمنافقين ، أعني قوله : **(مثلهم كمَثل الذي استوقد ناراً)** وقوله : **(أو كصيّب من السماء)** قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

الثاني : أنّه سبحانه لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت تكلّم فيه قوم من المشركين وعابوا ذكره ، فأنزل الله هذه الآية[١].

ولا يخفى ضعف الوجه الأوّل ، فإنّ المنافقين لم ينكروا ضرب المثل ، وإنّما أنكروا المثلين اللّذين مثّل بهما سبحانه حال المنافقين ، وعند ذلك لا يكون التمثيل بالبعوضة جواباً لردّ استنكارهم ، لأنّهم أنكروا المثلين اللّذين وردا في حقهما ، فلا يكون عدم استحيائه سبحانه من التمثيل بالبعوضة ردّاً على اعتراضهم.

وأمّا الثاني ، فقد ورد ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في مكة المكرمة ، لأنّ الأوّل ورد في سورة الحج ، وهي سورة مكية ، والآخر ورد في سورة العنكبوت ، وهي أيضاً كذلك. وهذه الآية نزلت في المدينة ، فكيف تكون الآية النازلة في مهجر النبي جواباً على اعتراض المشركين في موطنه ؟

وعلى كلّ تقدير فالآية بصدد بيان أنّ الملاك في صحة التمثيل ليس ثقل ما مثّل به أو كبره ، فلا التمثيل بالبعوضة عيب ولا التمثيل بالإبل والفيل كمال ، وإنّما الكمال أن يكون المثل مبيناً لحقيقة وواقعة غفل عنها المخاطب من دون فرق بين كون الممثل صغيراً أو كبيراً. وبعبارة أخرى : إذا كان الغرض التأثير فالبلاغة تقضي بأن تضرب الأمثال لما يراد تحقيره بحقيرها ولما يراد التنفير بما اعتادت النفوس النفور منها ،

(١) مجمع البيان : ١ / ٦٧.

فالملاك هو كون المثل مفيداً لما يريد المتكلم تحقيقه ، من غير فرق بين حقير الأشياء وكبيرها ، وهو سبحانه يشير إلى ذلك المعنى بقوله : (**إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أن يضربَ مثلاً ما بَعوضة**)

(بل) فوقها في الصغر كالجراثيم التي لا ترى إلاّ بالمجهر ، كما تقول : فلان لا يبالي أن يبخل بنصف درهم فما فوقه أي مما فوقه في القلة. ولو أُريد ما فوقه في الكثرة يقول مكانه « فضلاً عن الدرهم والدرهمين ». فما في كلام بعض المستشرقين من أنّ الصحيح أن يقول « فما دونه » غير تام. للفرق بين قوله : « فما فوقه » وقوله « فضلاً » والأوّل بقرينة المقام بمعنى فما فوقه في الصغر والحقارة لا بمعنى « فضلاً ». وربما تفسر الآية بأنّه لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها في الكبر ، ولكن الأوّل هو الأَوفق لمقصود المتكلم. كما يقال عند لوم المتجري : بأنّك تقترف جريمة لأجل دينار بل فوقه ، أي نصف دينار ، والمراد من الفوقية هو الفوقية في الحقارة. وقد أورد الزمخشري على نفسه سؤالاً ، وهو : كيف يضرب الله المثل لما دون البعوضة وهي في النهاية في الصغر ؟ ثمّ أجاب :

إنّ جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات ، وقد ضربه رسول الله مثلاً للدنيا ، وفي خلق الله حيوان أصغر منها ومن جناحها ربما رأيت في تضاعيف الكتب العتيقة دويبة لا يكاد يجليها للبصر الحاد إلاّ تحركها فإذا سكنت ، فالسكون يواريها ، ثمّ إذا لوّحت لها بيدك حادت عنها وتجنبت مضرتها ، فسبحان من يدرك صورة تلك وأعضاءها الظاهرة والباطنة ، وتفاصيل خلقتها ، ويبصر بصرها ، ويطلع على ضميرها ، ولعل في خلقه ما هو أصغر منها وأصغر سبحان الذي خلق الأزواج كلّها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون[1].

وقال البيضاوي : لما كانت الآيات السابقة متضمنة لأنواع من

(١) الكشاف : ١ / ٢٠٥ . ٢٠٦. وحا شية الشهاب (١ / ٤٠٠) .

التمثيل عقب ذلك ببيان حسنه ، وما هو الحق له والشرط فيه ، وهو أن يكون على وفق الممثّل له من الجهة التي تعلق بها التمثيل في العظم والصغر ، والخسة والشرف ، دون الممثّل ، فانّ التمثيل إنّما يصار إليه لكشف المعنى الممثّل له ، ورفع الحجاب عنه وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس ، ليساعد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه ، فانّ المعنى الصرف إنّما يدركه العقل مع منازعة من الوهم ، لأنّ من طبعه الميل إلى الحس وحب المحاكاة ، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية وفشت في عبارات البلغاء ، وإشارات الحكماء ، فيمثّل الحقير بالحقير كما يمثّل العظيم بالعظيم ، وإن كان المثل أعظم من كلّ عظيم ، كما مثّل في الإنجيل على الصدور بالنخالة ، والقلوب القاسية ، بالحصاة ، ومخاطبة السفهاء ، بإثارة الزنابير ، وجاء في كلام العرب : أسمع من قراد ، وأطيش من فراشة ، وأعز من مخ البعوض[١].

وربّما يتصور أنّ التمثيل بالأشياء الحقيرة الخسيسة لا يليق بكلام الفصحاء ، وعلى هذا فالقرآن المشتمل على النمل والذباب والعنكبوت والنحل لا يكون فصيحاً فضلاً عن كونه معجزاً. وأجاب عنه بعضهم بقوله: إنّ الحقارة لا تنافي التمثيل بها ، إذا شرط في المثال أن يكون على وفق الممثّل له من الجهة التي يستدعي التمثيل به كالعظم والحقارة ، والشرف والخساسة ، لا على وفق من يوقع التمثيل ويضرب المثال، لأنّ الغرض الأصلي منه إيضاح المعنى المعقول وإزالة الخفاء عند إبرازه في صورة المشاهد المحسوس ، ليساعد فيه الوهم العقل ولا يزاحمه ، فانّ العقل الإنساني مادام تعلقه بهذه القوى الحسيّة لا يمكنه إدراك روح المعنى مجرّداً عن مزاحمة الوهم ومحاكاته ، لأنّ من طبعه كالشياطين الدعابة في التخييل وعدم الثبات على صورة. ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية ، وفشت في عبارات الفصحاء من العرب وغيرهم ، وكثرت في

(١) تفسير البيضاوي : ١ / ٤٣.

إشارات الحكماء ومرموزاتهم ، وصحف الأوائل ومسفوراتهم ، تتميماً للتخيّل بالحس ، فهناك يضاعف في التمثيل ، حيث يمثل أوّلاً المعقول بالمتخيل ، ثمّ يمثل المتخيل بالمرسوم المحسوس المهندس المشكل[1].

ثمّ إنّه سبحانه يذكر أنّ الناس أمام الأمثال على قسمين :

أ : المؤمنون : وهم الذين قال سبحانه في حقّهم : (**فَأَمّا الّذين آمَنُوا فَيَعْلَمُون انّهُ الحَقُّ مِنْ رَبّهِمْ**).

ب : الكافرون : وهم الذين قال سبحانه في حقّهم : (**وَأَمّا الّذين كَفَروا فَيَقُولُونَ ماذا أَرادَ اللهُ بِهذا مثَلاً**). والظاهر أنّ قولهم (**أراد اللّهُ**) كان على سبيل الاستهزاء بادّعاء الرسول أنّ المثل وحي منزل من الله وإلاّ فانّ الكافرين والمنافقين كانوا ينكرون الوحي أصلاً. ولا غرو في أن يكون شيء سبب الهداية لطائفة وسبب الضلال لطائفة أخرى.

وما هذا إلاّ لأجل اختلاف القابليات ، فمن استعد لقبول الحقّ والحقيقة فتصبح الآيات الإلهية سبب الهداية ، وأمّا الطائفة الأخرى المعاندون الذين صمّوا مسامعهم عن سماع كلمة الحق وآياته فينكرون الآيات ويكفرون بذلك.

ثمّ إنّ الظاهر أنّ قوله سبحانه : (**يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلاّ الفاسقين**) من كلامه سبحانه ، ولا صلة له بكلام المنكرين ، بل تم كلامه بقوله : (**بها مثلاً**) وهو انّ الأمثال تؤثر في قوم دون قوم.

ثمّ إنّه يعلّل إضلال غير المؤمنين بفسقهم ويقول : (**وَما يُضِلُّ بِهِ إلاّ الفاسقين**) ، والفسق : عبارة عن خروج النواة من التمر ، وفي الاصطلاح : من خرج عن طاعة الله ، سواء أكان مسلما متجرياً أو كافراً فاسقاً.

وقد أطنب المفسرون الكلام في مفاد الجملة الاَخيرة أعني : (**يُضِلُّ**

(١) تفسير القرآن الكريم : ٢ / ١٩٢ . ١٩٣.

به كثيراً وَيَهْدي بهِ كَثيراً) فربما يتوهم أنّ الآية بصدد الإشارة إلى الجبر، فحاولوا تفسير الآية بشكل يتلاءم مع الاختيار ، وقد عرفت أنّ الحقّ هو أنّ الآية بصدد بيان أنّ المواعظ الشافية والكلمات الحِكَمية لها تأثير معاكس فيؤثر في القلوب المستعدة تأثيراً إيجابياً وفي العقول المنتكسة تأثيراً سلبياً. هذا هو تفسير الآية.

وربّما يحتمل أنّ الآية ليست بصدد بيان ضرب المثل بالبعوضة كضربه بالعنكبوت والذباب ، بل الآية خارجة عن نطاق ضرب المثل بالمعنى المصطلح ، وإنّما الآية بصدد بيان قدرته وعظمته وصفاته الجمالية والجلالية ، والآية بصدد بيان أنّ الله سبحانه لا يستحيي أن يستدل على قدرته وكماله وجماله بخلق من مخلوقاته سواء أكان كبيراً وعظيماً كالسماوات والأرض ، أو صغيراً وحقيراً كالبعوضة والذباب ، فمعنى ضرب المثل هو وصفه سبحانه بصفات الجلال أو الكمال.

ويدل على ذلك أنّه سبحانه استدل على جلاله وكماله بخلق السماوات والأرض وقال: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الّذِي خَلقَكُمْ وَالّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الّذي جَعَلَ لَكُمُ الاَرضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بناءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا للهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)** [1].

يلاحظ على تلك النظرية بأمرين :

أوّلاً : لو كان المراد من ضرب المثل وصفه سبحانه بالقدرة العظيمة لكان اللازم أن يأتي بالآية بعد هاتين الآيتين مع أنّه فصل بينهما بآيات ثلاث تركّز على إعجاز القرآن والتحدّي به ، ثمّ التركيز على الجنة وثمارها كما هو معلوم لمن راجع المصحف الكريم.

وثانياً : انّ القرآن يفسر بعضه بعضاً ، فقد جاء قوله : **(فَأَمّا الّذينَ آمنوا فيعلمون انّه الحق من ربّهم)** في سورة الرعد بعد تشبيه

(١) البقرة ٢١ . ٢٢.

الحق والباطل بمثل رائع يأتي البحث عنه إن شاء الله ، قال سبحانه : (**أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فسالَتْ أَودِيَةٌ بِقَدَرِها ...**) إلى أن قال : (**كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأمثالَ**) ثمّ قال : (**أَفَمَنْ يَعْلَمُ انّمَا أُنزل إِلَيكَ مِن ربِّكَ الحقُّ كَمَن هو أعمى إِنّما يَتَذَكّرُ أُولُوا الألباب * الّذين يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ ولاَ يَنْقُضُونَ المِيثاقَ**) [1].

تجد أنّ الآيات في سورتي البقرة والرعد كسبيكة واحدة يفسر بعضها البعض.

ففي سورة البقرة ذكر ضرب المثل بالبعوضة ، كما ضرب في سورة الرعد مثلاً للحق والباطل.

ففي سورة البقرة قال سبحانه : (**وَأَمّا الّذين آمنوا فيعلمون أنّه الحقّ من ربّهم**).

وفي سورة الرعد قال سبحانه : (**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أنّ مَا أُنْزِلَ إِلَيكَ مِنْ رَبّكَ الحَقُّ كمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألباب**).

وفي سورة البقرة قال : (**وَما يُضِلُّ بهِ إلاّ الفاسِقينَ**) ، وفسَّره بقوله: (**الّذين ينقضون عهد الله من بَعْدِ ميثاقِهِ ...**) الخ.

وفي سورة الرعد ، فسّر أُولي الألباب بقوله : (**الّذينَ يُوفُونَ بعَهدِ اللهِ وَلا يَنْقُضُونَ المِيثاق**) [2].

فبمقارنة هذه الآيات يعلم أنّ المراد من ضرب المثل هو المعنى المعروف أي التمثيل بالبعوضة لتحقير معبوداتهم أو ما يشبه ذلك.

فتدبّر.

---

(١) الرعد : ١٧ . ٢٠.

(٢) الرعد :٢٠

المثل الرابع

(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إلاّ دُعاءً وَنِداءً صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ) (١).

تفسير الآية

النعيق : صوت الراعي لغنمه زجراً ، يقال : نعق الراعي بالغنم ، ينعق نعيقاً ، إذا صاح بها زجراً. والنداء : مصدر نادى ينادي مناداة ، وهو أخص من الدعاء ، ففيه الجهر بالصوت ونحوه ، بخلاف الدعاء. وفي تفسير الآية وجوه :

الأوّل : انّ الآية بصدد تشبيه الكافرين بالناعق الذي ينعق بالغنم ، ولا يصح التشبيه عندئذٍ إلاّ إذا كان الناعق أصم ، ويكون معنى الآية : انّ الذين كفروا الذين لا يتفكرون في الدعوة الإلهية ، كمثل الأصم الذي ينعق بما لا يسمع نفسه ولا يميز من مداليل نعاقه معنى معقولاً إلاّ دعاءً ونداءً وصوتاً بلا معنى.

وجه التشبيه : انّ الناعق أصم كما أنّ هؤلاء الكافرين صم بكم عمي لا يعقلون. وفي هذا المعنى المشبه هو الكافرون الذين لا يفهمون من الدعوة النبوية إلاّ صوتاً ودعوة فارغة من المعنى. **والمشبه به** : هو الناعق الأصم الذي ينعق بالغنم ، ولكن لا يسمع من نعاقه إلاّ دعاءً ونداءً.

وهذا الوجه وإن كان ينطبق على ظاهر الآية ، ولكنّه بعيد من حيث المعنى ، إذ لو كان الهدف هو التركيز على أنّ الكافرين صم بكم عمي لا يعقلون لكفى تشبيههم بالحيوان الذي هو أيضاً كذلك ، فما هو الوجه

(١) البقرة : ١٧١.

لتشبيههم بإنسان عاقل أخذ منه سمعه لا يسمع من نعاقه إلاّ صوتاً ونداءً؟

الثاني : انّ المشبه هو النبي . صلى الله عليه وسلم . والمشبه به هو الناعق للغنم ، والمراد ومثلك أيها النبي في دعاء الذين كفروا كمثل الذي ينعق في البهائم التي لا تسمع من نعيقه إلاّ دعاءً ونداءً ما ، فتنزجر بمجرد قرع الصوت سمعها من غير ان تعقل شيئاً ، فهم . الكافرون . صمّ لا يسمعون كلاماً يفيدهم ، وبكم لا يتكلمون بما ينفع ، وعمي لا يبصرون ، فهم لا يعقلون شيئاً ، لأنّ الطرق المؤدية إلى التعقل موصدة عليهم ومن ذلك ظهر أنّ في الكلام قلباً أو عناية أخرى يعود إليه، فانّ المثل بالذي ينعق بما لا يسمع إلاّ دعاءً ونداءً مثل الذي يدعوهم إلى الهدى لا مثل الكافرين المدعوين إلى الهدى ، إلاّ انّ الأوصاف الثلاثة التي استنتجت واستخرجت من المثل وذكرت بعده ، وهي قوله : **(صمّ بكمٌ عميٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُون)** ، لما كانت أوصافاً للذين كفروا لا لمن يدعوهم إلى الحقّ استوجب ذلك أن ينسب المثل إلى الذين كفروا لا إلى رسول الله تعالى فأنتج ما أشبه القلب(١).

ثمّ إنّ صاحب المنار فسّر الآية على الوجه الأوّل وقال : (مثل الذين كفروا **) أي صفتهم في تقليدهم لآبائهم ورؤسائهم كمثل الذي لا يسمع إلاّ دعاء ونداءً ، أي كصفة الراعي للبهائم السائمة ينعق ويصيح بها في سوقها إلى المرعى ودعوتها إلى الماء وجزها عن الحمى ، فتجيب دعوته وتنزجر بزجره بما ألفت من نعاقه بالتكرار. شبّه حالهم بحال الغنم مع الراعي يدعوها فتقبل ، ويزجرها فتنزجر ، وهي لا تعقل مما يقول شيئاً ، ولا تفهم له معنى وإنّما تسمع أصواتاً تقبل**

(١) الميزان في تفسير لقرآن : ١ / ٤٢٠.

لبعضها وتدبر للآخر بالتعويد ، ولا تعقل سبباً للإقبال ولا للإدبار[١].

يلاحظ عليه : أنّ الآية بصدد ذمهم وانّهم لا يعتنقون الإيمان ولا يمتثلون الأوامر الإلهية ونواهيها ، وعلى ذلك تصبح الآية نوع مدح لهم ، لأنّهم لو كانوا كالبهائم السائمة يجيبون دعوة النبي كقبولها دعوة الراعي وينزجرون بزجره كانتهائها عن نهي الراعي ، فيكون ذلك على خلاف المقصود ، فانّ المقصود بشهادة قوله (صم بكم عمي) انّهم لا يسمعون كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا ينطقون بالحقّ ولا ينظرون إلى آيات الله وانّهم في واد والنبي في واد آخر.

وأين هم من البهائم السائمة التي تقع تحت يد الراعي فتنتهى بنهيه ؟!

(١) تفسير المنار : ٢ / ٩٣ . ٩٤.

المثل الخامس

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الّذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْساءُ وَالضَّرّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالّذين آمنوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ) (١).

نزلت الآية عندما حوصر المسلمون واشتد الخوف والفزع بهم في غزوة الأحزاب فجاءت الآية لتثبّت قلوبهم وتعدهم بالنصر.

وقيل : إنّ عبد الله بن أُبي قال للمسلمين عند فشلهم في غزوة أحد: إلى متى تتعرضون للقتل ، ولو كان محمّد نبياً لما واجهتم الأسر والتقتيل؟، فنزلت الآية.

تفسير الآية

وردت لفظة « أم » للإضراب عما سبق وتتضمن معنى الاستفهام ، والمعنى « بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة ».

و**(البَأساء)** : هي الشدة المتوجهة إلى الإنسان من خارج نفسه كالمال والجاه والأهل.

و« الضرّاء » : هي الشدة التي تصيب نفس الإنسان كالجرح والقتل ، وقيل : انّ « البأساء » نقيض « النعماء » ، « الضراء » نقيض « السراء » ، و « الزلزلة » شدة الحركة ، والزلزال البلية المزعجة لشدة الحركة والجمع زلازل ، وأصله من قولك زلّ الشيء عن مكانه ، ضوعف لفظه بمضاعف معناه ، نحو صرى وصرصر ، وصلى وصلصل ، فإذا قلت زلزلته ، فمعناه كرّرت تحريكه عن مكانه.

وقد جاء ما يقرب من مضمون الآية في آيات أخرى ، منها قال سبحانه : **(وَالصّابِرينَ فِي البَأْساءِ وَالضَّرّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولئِكَ الّذينَ**

(١) البقرة : ٢١٤.

صَدَقُوا وَأُوْلئِكَ هُمُ المُتَّقُون) [١].

وقال سبحانه : **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالبَأساءِ وَالضَّرّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُون)** [٢].وقال سبحانه : **(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍ إلاّ أَخَذْنا أَهْلَهَا بِالبَأساءِ والضَّرّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَرّعُون)** [٣].

تدلُّ مجموع هذه الآيات على دوام الابتلاء والامتحان في جميع الأمم خصوصاً في الأمة الإسلامية. ثمّ إنّ الهدف من امتحان أبناء البشر هو تحصيل العلم بكفاءة الممتحن ، لكنّه فيه سبحانه يستهدف إلى إخراج ما بالقوة من الكمال إلى الفعلية مثلاً : فانّ إبراهيم . عليه السلام . كان يتمتع بموهبة التفاني في الله وبذل ما يملك في سبيله غير انّه لم تكن لها ظهور وبروز ، فلما وقع في بوتقة الامتحان ظهرت تلك الموهبة إلى الوجود بعد ما كانت بالقوة. وما ذكرنا هو المستفاد من الآيات وقد صرح به علي . رضي الله عنه . في بعض خطبه : قال :

« لا يقولنّ أحدكم : اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة ، لأنّه ليس أحد إلاّ وهو مشتمل على فتنة ، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلاّت الفتن، فانّ الله سبحانه يقول : **(وَاعْلَمُوا أنّما أَموالكُمْ وَأَولادكُمْ فِتْنَة)** ومعنى ذلك انّه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبيّن الساخط لرزقه والراضي بقسمه ، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم ، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يُستحق الثواب والعقاب »[٤]. ولنرجع إلى تفسير الآية مرة أخرى

يقول سبحانه : إنّ الابتلاء بالبأساء والضراء سنة إلهية جارية في الأمم كافة ولا تختص بالأمة الإسلامية ، فالتمحيص وتمييز المؤمن

---

(١) البقرة : ١٧٧.

(٢) الأنعام :٤٢

(٣) الأعراف : ٩٤.

(٤) نهج البلاغة : قسم الحكم : الحكمة ٩٣. ط:دار الإيمان . المنصورة . ١٩٩٦م

الصابر عن غير الصابر رهن الابتلاء. فلا يتمحض إيمان المسلم إلاّ إذا غربل بغربلة الامتحان ليخرج نقياً. ولا يترسخ الإيمان في قلبه إلاّ من خلال الصمود والثبات أمام أعاصير الفتن الهوجاء.

وكأنّ الآية تسلية لنبيه وأصحابه مما نالهم من المشركين وأمثالهم ، لأنّ سماع أخبار الأمم الماضية يسهّل الخطب عليهم ، وانّ البلية لا تختص بهم بل تعم غيرهم أيضاً ولذلك يقول : (**أَمْ حَسِبْتُمْ**) أي أظننتم وخلتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة (**ولمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الّذين خَلوا مِنْ قَبْلِكُم**) ، أي أن تدخلوا الجنة ولما تبتلوا وتمتحنوا بمثل ما ابتليت به الأمم السالفة وامتحنوا به. فعليكم بالصبر والثبات كما صبر هؤلاء وثبتوا. وعلى ضوء هذا فالمثل بمعنى الوصف . وقد تقدم منّا القول . بأنّ من معاني المثل هو الوصف. فقوله : (**وَلَما يَأتِكُم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضراء**) ، أي « لمّا يأتكم وصف الذين خلوا من قبلكم» فلا يدخلون حظيرة الإيمان الكامل إلاّ أن يكون لهم وصف مثل وصف الذين واجهوا المصائب والفتن بصبر وثبات وعانوا الكثير من القلق والاضطراب ، كما قال تعالى في حقّ المؤمنين : (**وَزلزلوا زِلزالاً شَديداً**) ففي خضّم هذه الفتنة التي تنفد فيها طاقات البشر ، فإذا بالرحمة تنزل عليهم من خلال دعاء الرسول . صلى الله علبه وسلم . وصالح المؤمنين.

كما قال سبحانه : (**وَزلزلوا حتى يقول الرسول والّذين آمنوا معه متى نصر الله**) والجملة ليست إلاّ طلب دعاء للنصر الذي وعد الله به رسله والمؤمنين بهم واستدعاءً له ، كما قال تعالى : (**وَلَقدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُون**) [1]، وقال تعالى : (**كَتَبَ**

(١) الصافات : ١٧١ . ١٧٢.

اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلي) [١].

يقول الزمخشري : ومعناه طلب الصبر وتمنّيه واستطالة زمان الشدة، وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدة ، وتماديه في العظم ... فإذا لم يبق للرسل صبر حتى ضجّوا ، كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح ورائها.

وعند ذلك يخاطبون بقوله سبحانه : **(ألا إنّ نصر الله قريب)** أي يقال لهم ذلك إجابة لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر[٢].ثمّ إنّ القراءة المعروفة هي الرفع في قوله : **(حَتى يَقول الرسول)** ،وعند ذلك تكون الجملة لحكاية حال الأمم الماضية. وقرئ بنصب « يقول » وعلى هذا تكون الجملة في محل الغاية لما سبقها وهو قوله **(مسّتهم البأساء والضراء)** و **(زلزلوا** ولعل القراءة الأُولى أفضل لبعد كون الجملة غاية لمس البأساء والضراء والزلزال. وقد تبين ممّا ذكرنا أنّ المثل بمعنى التمثيل والتشبيه ، فتشبيه حال الأمة الإسلامية بالأمم السابقة في أنّهم يعمّهم البأساء والضراء والزلزال ، فإذا قرب نفاد طاقاتهم وصمودهم في المعارك يدعو الرسول ومن معه من المؤمنين لهم بالنصر والغلبة والنجاح. ثمّ إنّ بعض الكتّاب ممن كتب في أمثال القرآن جعل الآيات الثلاث التالية من الأمثال القرآنية[٣].

أ : **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذِي حاجَّ إِبْراهيمَ فِي رَبّهِ أَنْ آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ إِبْراهيمُ رَبّي الّذي يُحْيي وَيُمِيتُ قالَ أَنَا أُحْيي وَأُمِيتُ قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الّذِي**

---

(١) المجادلة : ٢١.

(٢) الكشاف : ١ / ٢٧٠

(٣) الدكتور محمد حسين علي الصغير : الصورة الفنية في المثل القرآني : ١٤٤ ؛ والدكتور إسماعيل إسماعيلي : تفسير أمثال القرآن : ١٩١.

كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَومَ الظّالِمين) [1].

ب : **(أَوْ كَالّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قالَ أَنَّى يُحْيي هذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَماتَهُ اللهُ مائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يوماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالَ بَلْ لَبِثْتَ مائَةَ عامٍ فَانْظُر إِلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُر إِلى حِمارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنّاسِ وَانْظُرْ إِلى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)** [2].

ج : **(وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قالَ أَوَ لَمْ تُؤمِن قالَ بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قالَ فَخُذْ أَرْبَعةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)** [3].ولا يخفى ما فيها من الضعف.

أمّا الآية الأولى فلاَنّ المراد من التمثيل هو التشبيه الذي يصور فيه غالباً غير المحسوس بالمحسوس ويقرّب المعنى إلى ذهن المخاطب ، ولكن التشبيه في الآية الأُولى الذي قام به مناظر إبراهيم كان تشبيهاً غير صحيح ، وذلك لأنّه لمّا وصف إبراهيم ربّه بأنّه يحيي ويميت أراد منه من يضفي الحياة على الجنين ويقبضه عندما يَطعن في السن ، ولكن المناظر فسّره بوجه أعم وقال : أنا أيضاً أُحيي وأُميت ، فكان إحياوَه بإطلاق سراح من كُتب عليه القتل ، وقتل من شاء من الأحياء ، مع الفرق الشاسع بين الإحياء والإماتة في كلام الخليل وكلام المناظر ، فلم يكن هناك أي تشبيه بل مغالطة واضحة فيه.

وأمّا الآية الثانية، فلم يكن هناك أي تشبيه أيضاً في تفسير الآية.

---

(١) البقرة : ٢٥٨.

(٢) البقرة : ٢٥٩.

(٣) البقرة : ٢٦٠.

لأنّه يشترط في التمثيل الاختلاف بين المشبه والمشبه به اختلافاً نوعياً ، كتشبيه الرجل الشجاع بالأسد ومُحمرَّ الشقيق بأعلام الياقوت ، وأمّا الآية المباركة فانّما هي من قبيل إيجاد مِثْل للمشبه ، فالرجل لما مرّ على القرية الخاوية على عروشها وقد شاهد بأنّه باد أهلها ورأي عظاماً في طريقها إلى البِلاء فقال : (**كيف يحيي هذه الله بعد موتها**) فأماته الله سبحانه مائة عام ثم أحياه كما هو ظاهر الآية ، وعلى ذلك فأوجد مِثْلاً للمشبه مع الوحدة النوعية وإنّما الاختلاف في الصنف ، وقد عرفت لزوم وجود التباين النوعي بين المشبّه والمشبّه به.

وأمّا الآية الثالثة ، فمفادها هو أنّ إبراهيم كان موَمناً بقدرته على إحياء الموتى ولكن طلب الإحياء ليراه بعينه ، لأنّ للعيان أثراً كبيراً في الاطمئنان ورسوخ العلم في القلب ، فطلب الرؤية ليطمئن قلبه ويزداد يقينه، فخاطبه سبحانه بقوله : (**فَخُذْ أَربَعة من الطّير فصرهنّ إليك**) ، أي أملهنّ وأجمعهنّ وضمهنّ إليك. (**ثُمّ اجعل عَلى كُلّ جَبل مِنهُنَّ جزءاً**) هذا دليل على أنّه سبق الأمر بقطعهنّ وذبحهنّ. (**ثمّ ادعُهُنَّ يأتينك سعياً**) ، ولم يذكر في الآية قيام إبراهيم بهذه الأعمال استغناء عنه بالقرائن. هذا هو مفهوم الآية وأمّا انّها ليست مَثَلاً ، فلعدم توفر شرائط المثَل من المشبه والمشبه به ، وإنّما هو من قبيل إيجاد الفرد من الأمر الكلي أي إحياء الموتى سواء أكان إنساناً أم لا.

فالأولى عدّ هذه الآيات من القصص التي حكاها القرآن الكريم للعبرة والعظة لكن لا في ثوب المثل.

المثل السادس

(مَثَلُ الّذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلّ سُنْبُلَةٍ مائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيم* الّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ في سَبِيلِ اللهِ ثُمّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا منّاً وَلا أَذى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون * قَولٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَاللهُ غَنِيّ حَلِيم) [1].

تفسير الآيات

وعد سبحانه في غير واحد من الآيات بالجزاء المضاعف ، قال سبحانه : **(مَنْ ذَا الّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وإليهِ تُرْجَعُون)** [2].ولأجل تقريب هذا الأمر أتى بالتمثيل الآتي وهو :

أنّ مثل الإنفاق في سبيل الله كمثل حبة أنبتت ساقاً انشعب سبعة شعب خرج من كلّ شعبة سنبلة فيها مائة حبة فصارت الحبة سبعمائة حبة ، بمضاعفة الله لها ، ولا يخفى أنّ هذا التمثيل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعة ، فإنّ في هذه إشارة إلى أنّ الأعمال الصالحة ينميها الله عزّ وجلّ لاَصحابها كما يملي لمن بذر في الأرض الطيبة. وظاهر الآية أنّ المشبه هو المنفق ، والمشبه به هو الحبة المتبدلة إلى سبعمائة حبة ولكن التنزيل في الواقع بين أحد الأمرين :

أ : تشبيه المنفق بزارع الحبة.

ب : تشبيه الإنفاق بالحبة المزروعة.

ففي الآية أحد التقديرين.

ثمّ إنّ ما ذكره القرآن من التمثيل ليس أمراً وهمياً وفرضاً خيالياً بل هو أمر ممكن واقع ، بل ربما يتجاوز هذا العدد ، فقد حكى لي بعض

(١) البقرة : ٢٦١ . ٢٦٣.

(٢) البقرة : ٢٤٥.

الزُّرّاع أنّه جنى من ساق واحد ذات سنابل متعددة تسعمائة حبة ، ولا غرو في ذلك فانّه سبحانه هو القابض والباسط.

ثمّ إنّه سبحانه فرض على المنفق في سبيل الله الطالب رضاه ومغفرته أن لا يتبع ما أنفقه بالمنّ والأذى. أمّا المنُّ ، فهو أن يتطاول المعطي على من أعطاه بأن يقول : « ألم أعطك » « ألم أحسن إليك » كلّ ذلك استطالة عليه ، وأمّا الاَذى فهو واضح.

فهؤلاء . أي المنفقون . غير المتبعين إنفاقهم بالمنّ والأذى **(لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يَحْزنون)**. ثمّ إنّه سبحانه يرشد المعوزين بأن يردّوا الفقراء إذا سألوهم بأحد نحوين :

أ : **(قول معروف)** كأن يتلطف بالكلام في ردّ السائلين والاعتذار منهم والدعاء لهم.

ب : **(ومغفرة)** لما يصدر منهم من إلحاف أو إزعاج في المسألة.

فالمواجهة بهاتين الصورتين **(خير من صدقة يتبعها أذى)**.

وعلى كلّ حال فالمغني هو الله سبحانه ، كما يقول : **(وَالله غني)** أي يغني السائل من سعته ولكنّه لأجل مصالحكم في

الدنيا والآخرة استقرضكم في الصدقة وإعطاء السائل. **(حليم)** فعليكم يا عباد الله بالحلم والغفران لما يبدر من السائل. ولما حذر الله المتصدق من أن يؤذي المتصدق عليه علم أن التحذير من الإضرار به كشتمه وضربه حاصل بفحوى الخطاب لأنه أولى بالنهي **أوسع الله تعالى هذا المقام بيانا وترغيبا وزجرا بأساليب مختلفة وتفننات بديعة فنبهنا بذلك إلى شدة عناية الإسلام بالإنفاق في وجوه البر والمعونة**[١].

(١) التحرير والتنوير للشيخ الطاهر محمد بن عاشور(٣١٧/٢) ط: دار سحنون . تونس . بدون.

سورة يونس

المثل السابع

(إِنَّما مَثَلُ الحَياة الدُّنيا كَمَاءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ مِمّا يَأكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ حَتّى إذا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ ازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْهَا أَتاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأن لَمْ تَغْنَ بالاَمْسِ كَذلِكَ نُفَصّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُون * واللهُ يَدعُو إلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) [١]. [١]

يقول ابن قيم الجوزية . رحمه الله .: شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغترارا منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها فشبهها بالأرض الذي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة فتصبح كأن لم تكن قبل فيخيب ظنه وتصبح يداه صفرا منهما فهكذا حال الدنيا والواثق بها سواء وهذا من أبلغ التشبيه والقياس فلما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات والجنة سليمة منها قال تعالى تعالى والله يدعوا إلى دار السلام فسماها هنا دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا فعم بالدعوة إليها وخص بالهداية من شاء فذلك عدله وهذا فضله[٢] قال القاشاني : البغي ضد العدل ، فكما أن العدل فضيلة شاملة لجميع الفضائل ، وهيئة وحدانية لها ، فائضة من نور الوحدة على النفس ، فالبغي لا يكون إلا عن غاية الانهماك في الرذائل بحيث يستلزمها جميعاً ، فصاحبها في غاية البعد عن الحق ، ونهاية الظلمة ، كما قال : الظلم ظلمات يوم القيامة . فلهذا قال : { عَلَى أَنْفُسِكُمْ } لا على المظلوم ؛ لأن المظلوم

(١) يونس :٢٤،٢٥.

(٢) أمثال القرآن لابن قيم الجوزية (ص :٧٢). ط:دار السلام . القاهرة . ١٩٩٢م

سعد به وشقي الظالم غاية الشقاء ، وهو ليس إلا متاع الحياة الدنيا ؛ إذ جميع الإفراطات والتفريطات المقابلة للعدالة تمتعات طبيعية ، ولذات حيوانية ، تنقضي بانقضاء الحياة الحسية التي مثلها في سرعة الزوال ، وقلة البقاء ، هذا المثل الذي مثل به من تزين الأرض بزخرفها من ماء المطر .

ثم فسادها ببعض الآفات سريعاً قبل الانتفاع بنباتها ، ثم تتبعها الشقاوة الأبدية والعذاب الأليم الدائم .

وفي الحديث : < أسرع الخير ثواباً صلة الرحم ، وأعجل الشر عقاباً البغي واليمين الفاجرة >[١] ؛ لأن صاحبه تتراكم عليه حقوق الناس ، فلا تحتمل عقوبته المهل الطويل الذي يحتمله حق الله تعالى . انتهى .

وسمعت بعض المشايخ يقول : قلما يبلغ الظالم والفاسق أوان الشيخوخة ،وذلك لمبارزتهما الله تعالى في هدم النظام المصروف عنايته تعالى إلى ضبطه

ومخالفتهما إياه في حكمته وعدله . انتهى[٢]

---

(١) قلت رواه إسحاق بن راهويه في مسنده أنا جرير عن برد بن سنان عن مكحول قال قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (أعجل الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغي واليمين الفاجرة تدع الديار بلا قع)انتهى

وكذلك رواه الثعلبي في تفسيره في سورة الرعد عن جرير عن ثور عن مكحول مرفوعا فذكره وهو مرسل وروى أبو يعلي الموصلي في مسنده حدثنا سويد بن سعيد حدثنا صالح بن موسى عن معاوية بن إسحاق عن عائشة بنت طلحة وعن عائشة أم المؤمنين قالت قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (أسرع الخير ثوابا صلة الرحم وأسرع الشر عقوبة البغي .

انظر تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف(١/ ٢٣٤)تأليف :جمال الدين عبدالله بن يوسف بن محمد الزيلعي /ط: دار ابن خزيمة . الرياض / الأولى١٤١٤هـ/ تح :عبد الله بن عبد الرحمن السعدي

(٢) محاسن التأويل . لجمال الدين محمد القاسمي (١٢٠/٣) ط:دار الحديث القاهرة ١٩٩٥م.

سورة الكهف

المثل الثامن

قال تعالى(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) الكهف(٤٥)

يقول أبو عبد الله القرطبي . رحمه الله .:

قوله تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا) أي صف لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طرد فقواء المؤمنين مثل الحياة الدنيا، أي شبهها. (كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ) أي بالماء. (نَباتُ الْأَرْضِ) حتى استوى. وقيل: إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء، لان النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر. وقد تقدم هذا المعنى في" يونس مبينا. وقالت الحكماء: إنما شبه تعالى الدنيا بالماء لان الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، ولان الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولان الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولان الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولان الماء إذا كان بقدر كان نافعا منبتا، وإذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر. وفى حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له رجل: يا رسول الله، إنى أريد أن أكون من الفائزين، قال:" ذر الدنيا وخذ منها كالماء الراكد فإن القليل منها يكفى والكثير منها يطغى". وفى صحيح مسلم عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما أتاه". (فَأَصْبَحَ) أي النبات (هَشِيماً) أي متكسرا من اليبس متفتتا، يعنى بانقطاع الماء عنه، فحذف ذلك إيجازا لدلالة الكلام عليه. والهشيم كسر الشيء

اليابس. والهشيم من النبات اليابس المتكسر، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء[١]. وإذا صار النبات كذلك طيرته الرياح وذهبت بتلك الأجزاء إلى سائر الجوانب : وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً بتكوينه أولا وتنميته وسطا وإبطاله آخرا وأحوال الدنيا أيضا كذلك تظهر أولا في غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم تأخذ في الانحطاط إلى أن تنتهي إلى الهلاك والفناء ، ومثل هذا الشيء ليس للعاقل أن يبتهج به[٢].و لما بيّن تعالى أنَّ الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة على الزَّوال والبوار والفناء ، بيَّن تعالى أنَّ المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، والمقصود منه إدخال هذا الجزئيِّ تحت ذلك الكليِّ ، فينعقد به قياسٌ بيِّن الإنتاج ، وهو أنَّ المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، وكل ما كان زينة الحياة الدنيا ، فهو سريعُ الانقضاءِ والانقراضِ ، ومن اليقين البديهيِّ ، أن ما كان كذلك، فإنه يقبح بالعاقل أن يفتخر به ، أو يقيم له في نظره وزناً ، فهذا برهان باهرٌ على فساد قول المشركين الذين افتخروا بكثرة الأموال والولاد على فقراء [المؤمنين] [٣].

(١) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (٥/ ٢١٥) ط: دار الكتب المصرية . ١٩٦٤م

(٢) مفاتيح الغيب للإمام محمد بن عمر المعروف بفخر الين الرازي (٢١/ ٤٥٥) ط: دار إحياء التراث . بيروت ١٩٨٥م

(٣) تفسير اللباب إلى علوم الكتاب لعمر بن علي بن عادل الدمشقي(١٣ /١١٢)ط:دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٩٢م

سورة النور

المثل التاسع

قال تعالى :(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)) يقول الآلوسي . رحمه الله .:

وصف الذين كفروا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ أي أعمالهم التي هي من أبواب البر كصلة الأرحام وفك العناة سقاية الحاج وعمارة البيت وإغاثة الملهوفين وقرى الأضياف ونحو ذلك على ما قيل ، وقيل أعمالهم التي يظنون الانتفاع بها سواء كان مما يشترط فيها الإيمان كالحج أم كانت مما لا يشترط فيها ذلك كسقاية الحاج وسائر ما تقدم ، وقيل المراد بها ما يشمل الحسن والقبيح ليتأتى التشبيهان ، وسيأتي إن شاء اللّه تعالى الكلام في ذلك ، والسراب بخار رقيق يرتفع من قعور القيعان فإذا اتصل به ضوء الشمس أشبه من بعيد الماء السارب أي الجاري واشترط فيه الفراء اللصوق في الأرض ، وقيل هو ما ترقرق من الهواء في الهجير في فيافي الأرض المنبسطة ، وقيل : هو الشعاع الذي يرى نصف النهار عند اشتداد الحر في البر يخيل للناظر أنه ماء سارب ، قال الشاعر :

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم كلمع سراب في الفلا متألق

وإلى هذا ذهب الطبرسي ، وفسر الآل بأنه شعاع يرتفع بين السماء والأرض كالماء ضحوة النهار بِقِيعَةٍ متعلق بمحذوف هو صفة سراب أي كائن بقيعة وهي الأرض المنبسطة المستوية ، وقيل هي جمع قاع كجيرة في جار ونيرة في نار ، وقرأ مسلمة بن محارب «بقيعات» بتاء طويلة على أنه جمع قيعة كديمات وقيمات في ديمة وقيمة ، وعنه أيضا قرأ

« بقيعاة » بتاء مدورة ويقف عليها بالهاء فيحتمل أن يكون جمع قيعة ووقف بالهاء على لغة طيىء كما قالوا : البناه والاخواه ، ويحتمل كما قال صاحب اللوامح أن يكون مفردا وأصله قيعة كما في قراءة الجمهور لكنه أشبع الفتحة فتولدت منها الألف يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً صفة أخرى لسراب.

وجوز أن يكون هو الصفة وبقيعة ظرفا لما يتعلق به الكاف وهو الخبر والحسبان الظن على المشهور وفرق بينهم الراغب بأن الظن أن يخطر النقيضان بباله ويغلب أحدهما على الآخر والحسبان أن يحكم بأحدهما من غير أن يخطر الآخر بباله فيعقد عليه الأصبع ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك ، وتخصيص الحسبان بالظمئان مع شموله كل من يراه كائنا من كان من العطشان والريان لتكميل التشبيه بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشبه الذي هو المطلع والمقطع المؤيس.

وقرأ شيبة وأبو جعفر ونافع بخلاف عنهما «الظمآن» بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الميم حَتَّى إِذا جاءَهُ أي إذا جاء العطشان ما حسبه ما ، وقيل : إذا جاء موضعه لَمْ يَجِدْهُ أي لم يجد ما حسبه ماء وعلق رجاءه به شَيْئاً أصلا لا محققا ولا مظنونا كان يراه من قبل فضلا عن وجه أنه ماء ، ونصب شَيْئاً قيل على الحالية ، وأمر الاشتقاق سهل ، وقيل على أنه مفعول ثان لوجد بناء على أنها من أخوات ظن ، وجوز أن يكون منصوبا على البدلية من الضمير ، ويجوز إبدال النكرة من المعرفة بلا نعت إذا كان مفيدا كما صرح به الرضي ، واختار أبو البقاء أنه منصوب على المصدرية كأنه قيل لم يجده وجدانا وهو كما ترى وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ عطف على جملة لَمْ يَجِدْهُ فهو داخل في التشبيه أي ووجد الظمآن مقدوره تعالى من الهلاك عند السراب المذكور ، وقيل أي وجد اللّه تعالى محاسبا إياه على أن العندية بمعنى الحساب لذكر التوفية بعد بقوله سبحانه : فَوَفَّاهُ

حِسابَهُ أي أعطاه وافيا كاملا حساب عمله وجزاءه أو أتم حسابه بعرض الكتبة ما قدمه وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ لا يشغله حساب عن حساب.

وفي إرشاد العقل السليم أن بيان أحوال الكفرة بطريق التمثيل قد تم بقوله سبحانه : لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ، وقوله تعالى : وَوَجَدَ إلخ بيان لبقية أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة لئلا يتوهم أن قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط فقط كما هو شأن الظمآن ، ويظهر أنه يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال ما لا قدر للخيبة عنده أصلا فليست الجملة معطوفة على لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم عينا ولا أثرا كما في قوله تعالى : وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً [الفرقان : ٢٣] كيف لا وأن الحكم بأن أعمال الكفرة كسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا حكم بأنها بحيث يحسبونها في الدنيا نافعة لهم في الآخرة حتى إذا جاؤوها لم يجدوها شيئا كأنه قيل : حتى إذا جاء الكفرة يوم القيامة أعمالهم التي كانوا في الدنيا يحسبونها نافعة لهم في الآخرة لم يجدوها شيئا ووجدوا اللّه أي حكمه وقضاءه عند المجيء ، وقيل : عند العمل فوفاهم أي أعطاهم وافيا حسابهم أي حساب أعمالهم المذكورة وجزاءها فإن اعتقادهم لنفعها بغير إيمان وعملهم بموجبه كفر على كفر موجب للعقاب قطعا ، وإفراد الضميرين الراجعين إلى الذين كفروا إما لإرادة الجنس كالظمآن الواقع في التمثيل وإما للحمل على كل واحد منهم ، وكذا إفراد ما يرجع إلى أعمالهم انتهى ، ولا يخفى ما فيه من البعد وارتكاب خلاف الظاهر.

وأيا ما كان فالمراد بالظمئان مطلق الظمآن ، وقيل المراد به الكافر ، وإليه ذهب الزمخشري قال : شبه سبحانه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش القيامة فيحسبه ماء فيأتيه فلا

يجده ويجد زبانية اللّه تعالى عنده يأخذونه فيسقونه الحميم والغساق وكأنه مأخوذ مما

أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق السدي في غرائبه عن أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «إن الكفار يبعثون يوم القيامة وردا عطاشا فيقولون أين الماء فيمثل لهم السراب فيحسبونه ماء فينطلقون إليه فيجدون اللّه تعالى عنده فيوفيهم حسابهم واللّه سريع الحساب» ، واستطيب ذلك العلامة الطيبي حيث قال: إنما قيد المشبه به برؤية الكافر وجعل أحواله ما يلقاه يوم القيامة ولم يطلق لقوله تعالى : وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ إلخ لأنه من تتمة أحوال المشبه به ، وهذا الأسلوب أبلغ لأن خيبة الكافر أدخل وحصوله على خلاف ما يؤمله أعرق.

وتعقبه أبو حيان بأنه يلزم من حمل الظمآن على الكافر تشبيه الشيء نفسه ، ورد بأن التشبيه على ما ذكره جار اللّه تمثيلي أو مقيد لا مفرق كما توهم فلا يلزم من اتحاد بعض المفردات في الطرفين تشبيه الشيء بنفسه كاتحاد الفاعل في – أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى – ، وبالجملة هو أحسن مما في الإرشاد كما لا يخفى على من سلم ذهنه من غبار العتاد.

والآية على ما روي عن مقاتل نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية كان تعبد وليس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر في الإسلام ولا يأبى ذلك قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لأنه غير خاص بسبب النزول وإن دخل فيه دخولا أوليا ، ولا يرد عليه أن الآية مدنية نزلت بعد بدر وعتبة قتل في بدر فإن كثيرا من الآيات نزل بسبب الأموات وليس في ذلك محذور أصلا ، ثم لا يبعد أن يكون في حكم هؤلاء الكفرة الفلاسفة ومتبعوهم من المتزينين بزي الإسلام فإن اعتقادهم وأعمالهم حيث لم تكن

على وفق الشرع كسراب بقيعة. أَوْ كَظُلُماتٍ عطف على كَسَرابٍ ، وكلمة أو قيل لتقسيم حال أعمالهم الحسنة ، وجوز الإطلاق باعتبار وقتين فإنها كالسراب في الآخرة من حيث عدم نفعها وكالظلمات في الدنيا من حيث خلوها عن نور الحق ، وخص هذا بالدنيا لقوله تعالى : وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ فإنه ظاهر في الهداية والتوفيق المخصوص بها ، والأول بالآخرة لقوله تعالى :

وَوَجَدَ إلخ وقدم أحوال الآخرة التي هي أعظم وأهم لاتصال ذلك بما يتعلق بها من قوله سبحانه : لِيَجْزِيَهُمُ إلخ ثم ذكر أحوال الدنيا تتميما لها.

وجوز أن يعكس ذلك فيكون المراد من الأول تشبيه أعمالهم بالسراب في الدنيا حال الموت ، ومن الثاني تشبيهها بالظلمات في القيامة كما في الحديث «الظلم ظلمات يوم القيامة» ويكون ذلك ترقيا مناسبا للترتيب الوقوعي وليس بذلك لما سمعت ، وقيل للتنويع

وذلك أنه أثر ما مثلت أعمالهم التي كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتماد ويفتخرون بها في كل واد وناد بما ذكر من حال السراب مثلت أعمالهم القبيحة التي ليس فيها شائبة خيرية يغتر بها المغترون بالظلمات المذكورة ، وزعم الجرجاني أن المراد هنا تشبيه كفرهم فقط وهو كما ترى. والظاهر على التنويع أن يراد من الأعمال في قوله تعالى : أَعْمالُهُمْ ما يشمل النوعين.

واعترض بأنه يأبى ذلك قوله تعالى : وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ بناء على دخوله في التشبيه لأن أعمالهم الصالحة وإن سلم أنها لا تنفع مع الكفرة لا وخامة في عاقبتها كما يؤذن به قوله سبحانه : وَوَجَدَ إلخ. وأجيب بأنه ليس فيه ما يدل على أن سبب العقاب الأعمال الصالحة بل وجد أن العقاب بسبب قبائح أعمالهم لكنها ذكرت جميعها لبيان أن بعضها جعل هباء منثورا وبعضها معاقب به ، وجوز أن تكون للتخيير في التشبيه

لمشابهة أعمالهم الحسنة أو مطلقا السراب لكونها لاغية لا منفعة فيها ، والظلمات المذكورة لكونها خالية عن نور الحق ، واختاره الكرماني.

واعترض بأن الرضي كغيره ذكر أنها لا تكون للتخيير إلا في الطلب. وأجيب بأنه وإن اشتهر ذلك فقد ذهب كثير إلى عدم اختصاصه به كابن مالك والزمخشري ووقوعه في التشبيه كثير ، وأيا ما كان فليس في الكلام مضاف محذوف. وقال أبو علي الفارسي : فيه مضاف محذوف والتقدير أو كذي ظلمات ، ودل عليه ما يأتي من قوله سبحانه : إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ والتشبيه عنده هنا يحتمل أن يكون للأعمال على نمط التشبيه السابق ويقدر أو كأعمال ذي ظلمات. ويحتمل أن يكون للكفرة ويقدر أو هم كذي ظلمات والكل خلاف الظاهر ، وأمر الضمير سيظهر لك إن شاء اللّه تعالى.

وقرأ سفيان بن حسين «أو كظلمات» بفتح الواو ، ووجه ذلك في البحر بأنه جعلها واو عطف تقدمت عليها الهمزة التي لتقرير التشبيه الخالي عن محض الاستفهام. وقيل هي أَوْ التي في قراءة الجمهور وفتحت الواو للمجاورة كما كسرت الدال لها في قوله تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ على بعض القراءات فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ أي عميق كثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر. وقيل اللجة وهي أيضا معظمه وهو صفة بَحْرٍ وكذا جملة قوله تعالى : يَغْشاهُ أي يغطي ذلك البحر ويستره بالكلية مَوْجٌ وقدمت الأولى لإفرادها. وقيل الجملة صفة ذي المقدر والضمير راجع إليه ، وقد علمت حال ذلك التقدير وقوله تعالى : مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ جملة من مبتدأ وخبر محلها الرفع على أنها صفة لموج أو الصفة الجار والمجرور وما بعده فاعل له لاعتماده على الموصوف. والمراد يغشاه أمواج متراكمة متراكبة بعضها على بعض ، وقوله تعالى : مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ صفة لموج الثاني على أحد الوجهين المذكورين أي من فوق ذلك الموج سحاب

ظلماني ستر أضواء النجوم ، وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها حتى كأنها بلغت السحاب .

ويقول الشيخ الدكتور / وهبة الزحيلي . أثابه الله . هذان مثلان ضربهما اللّه تعالى لحالي الكفار في الآخرة والدنيا، أو لنوعي الكفار: الداعي لكفره، والمقلد لأئمة الكفر، كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين: ناريا ومائيا، وكما ضرب لما يقرّ في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين: مائيا وناريا أيضا.

أما المثل الأول هنا فهو قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)

أي إن الأعمال الصالحة التي يعملها الكفار الذين جحدوا توحيد اللّه وكذبوا بالقرآن وبالرسول المنزل عليه، أو الدعاة إلى كفرهم، الذين يظنون أنها تنفعهم عند اللّه، وتنجيهم من عذابه، ثم تخيب آمالهم في الآخرة ويلقون خلاف ما قدّروا، شبيهة بسراب يراه الإنسان العطشان في فلاة أو منبسط من الأرض، فيحسبه ماء، فيأتيه، فلا يجد ما رجاه. وأعمالهم الصالحة: مثل صلة الأرحام والإحسان إلى الفقراء وإقامة المشاريع الخيرية. وهكذا حال الكافرين في الآخرة يحسبون أعمالهم نافعة لهم، منجّية من عذاب اللّه، فإذا جاء يوم القيامة وقوبلوا بالعذاب، فوجئوا أن أعمالهم لم تنفعهم، وإنما يجدون زبانية اللّه تأخذهم إلى جهنم، التي يسقون فيها الحميم والغساق، وهم الذين قال اللّه فيهم: قُلْ: هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً .. الآيات [الكهف ١٨/ ١٠٢- ١٠٦]. وقال تعالى هنا: وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ، فَوَفَّاهُ حِسابَهُ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ أي ووجد عقاب اللّه وعذابه الذي توعد به الكافرين، فجازاه اللّه الجزاء الأوفى على عمله في الدنيا، واللّه

سريع المجازاة، لا يشغله حساب عن حساب، كما قال تعالى: وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً [الفرقان ٢٥/ ٢٣]. هذا حالهم في الآخرة، أو حال الكفار الدعاة إلى الكفر.

والخلاصة: أن الكفار سيصطدمون بالخيبة والخسارة في الآخرة، فلا يجدون ما ينفعهم ولا ما ينجيهم.

أما المثل الثاني لحالهم في الدنيا أو حال الكفار الجهلة المقلدين لأئمة الكفر فهو كما قال تعالى:

(أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ، مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ، مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ) أي إن مثل أعمال الكفار التي يعملونها في الدنيا على غير هدى.

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) (٤٠)

أو مثل الذين يقلدون غيرهم، مثل ظلمات متراكمة في بحر عميق كثير الماء، تغمره الأمواج المتلاطمة، ويحجب نور الكواكب السماوية غيم كثيف، فهي ظلمات ثلاث: ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب، وكذا الكافر له ظلمات ثلاث: ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول، وظلمة العمل، وهذه الظلمات حجبت عنه رؤية الحق وإدراك ما في الكون من عظات وآيات ترشد إلى الطريق الأقوم. قال الحسن: الكافر له ظلم وظلمات ثلاث: ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول، وظلمة العمل. وقال ابن عباس: شبهوا قلبه وبصره وسمعه بهذه الظلمات الثلاث.

والمقصود من هذا المثل بيان أن الكافر تراكمت عليه أنواع الضلالات في الدنيا، فصار قلبه وبصره وسمعه في ظلمة شديدة كثيفة، لم يعد بعدها قادرا على تمييز طرق الصواب ومعرفة نور الحق. لذا قال

تعالى: ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ، إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها أي إن تلك الظلمات الثلاث ظلمات متراكمة مترادفة، بعضها يعلو البعض الآخر، حتى إنه إذا مدّ الإنسان يده، وهي أقرب شيء إليه، لم يقرب أن يراها، فضلا عن أن يراها، ومعنى «لم يكد»: لم يقارب الوقوع، والذي لم يقارب الوقوع لم يقع.

وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ أي من لم يهده اللّه ولم يوفقه إلى الهداية، فهو هالك جاهل خاسر، في ظلمة الباطل لا نور له، ولا هادي له، كقوله تعالى: **مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ** [الأعراف ٧/ ١٨٦]. وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ [الرعد ١٣/ ٣٣]، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ [إبراهيم ١٤/ ٢٧]. وهذا مقابل لما قال في مثل المؤمنين يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات مثلين لأعمال الكفار فهي إما كسراب خادع في فلاة أو صحراء، وإما كظلمات، والمثل الأول كما اختار الرازي دال على خيبة الكافر في الآخرة، والثاني دال على كون أعمالهم في متاهات وضلالات وظلمات يصعب اختراقها وتجاوزها، لكون قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم في ظلمة حالكة، يتخبط فيها، فلا يدري ما هو الصواب، وهو أيضا جاهل لا يدري أنه لا يدري.

ويستفاد من الآيات أن شرع اللّه ونظامه هو النور الصحيح المرشد لخيري الدنيا والآخرة، وأما التشريع المخالف لشرع اللّه فهو كالسراب الخادع، والظلمات المتراكمة. وهذا كله في مجال العقيدة. أما في مجال التحضر الدنيوي فقد يكون الكافر مبدعا فيها، متفوقا في إدراك غوامض الحياة، مبتكرا وسائل التقدم والمدينة، ولكنه عن الآخرة والنجاة فيها غافل جاهل.

قال ابن عباس في قوله تعالى: وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ أي من لم يجعل اللّه له دينا فماله من دين، ومن لم يجعل اللّه له نورا يمشي به يوم القيامة، لم يهتد إلى الجنة كقوله تعالى: وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ [الحديد ٥٧/ ٢٨].

والسبب في إحباط أعمال الكافر وإهدارها: أنها لا تعتمد على أصل صحيح وهو الإيمان باللّه تعالى، واللّه لا يقبل عملا إلا من مؤمن معترف باللّه وبصفاته، موحد له توحيدا تاما كاملا لتصح نية عمله.

والخلاصة: أن المثلين المذكورين في الآيتين هما تحذير وتنبيه للكفار، فمن عقل كلام اللّه وتدبر فيه، صحح اعتقاده، فيصلح له عمله ويستقيم في الدنيا، ومن ظل مصرا على كفره، معرضا عن التأمل في آيات ربه، لقي جزاء عسيرا، وعقابا أليما، ولم ينفعه أي عمل صالح، ينجّيه من عذاب اللّه يوم القيامة[١].

(١) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ،للإمام شهاب الدين الآلوسي (٩/ ٣٧٢ :٣٧٥)ط: دار الكتب العلمية . بيروت .١٩٩٣م.

و التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج . د/ وهبة بن مصطفى الزحيلي(٢٥٩:٧/٢٧١) ط: دار الفكر المعاصر . بيروت ١٤١٨هـ .

سورة العنكبوت

المثل العاشر

قال تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) يقول الشيخ السعدي . رحمه الله . : هذا مثل ضربه اللّه لمن عبد معه غيره، يقصد به التعزز والتَّقَوِّي والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت، اتخذت بيتا يقيها من الحر والبرد والآفات، { وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ} أضعفها وأوهاها { لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ } فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفا، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفا إلى ضعفهم، ووهنا إلى وهنهم.

فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوها عليهم، وتخلوا هم عنها، على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل.

فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم، حالهم وحال من اتخذوهم، لم يتخذوهم، ولتبرأوا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه، كفاه مئونة دينه ودنياه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله وأعماله[1].

فهذا مثل في قمة العقيدة ، ضربه الله لنا للتوضيح وللبيان ، ولتقريب المسائل إلى عقولنا ، وإياك أن تقول للمثل الذي ضربه الله لك :

(١) انظر تيسيرالكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (١ / ٦٣١) ط: مؤسسة الرسالة . بيروت ١٤٢٠هـ

ماذا أراد الله بهذا؟ لأن الله تعالى قال : { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . } [البقرة : ٢٦] فالبعض يرى أن البعوضة هذه شيء تافه ، فكيف يجعله الله مثلاً؟ والتحقيق أن البعوضة خَلْق من خَلْق الله ، فيها من العجائب والأسرار ما يدعوك للتأمل والنظر، وليست شيئاً تافهاً كما تظن ، بل يكفيك فَخْراً أنْ تصل إلى سِرِّ العظمة فيها .

ففي هذا المخلوق الضئيل كل مُقوِّمات الحياة والإدراك ، فهل تعرف فيها موضع العقل وموضع جهازها الدموي . . إلخ وفضلاً عن الذباب والناموس وصغار المخلوقات ألا ترى الميكروبات التي لا تراها بعينك المجردة ومع ذلك يصيبك وأنت القوى بما يؤرقك وينغص عليك .

إذن : لا تقُلْ لماذا يضرب الله الأمثال بهذه الأشياء لأن الله { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . .} [البقرة : ٢٦] ما فوقها أي : في الصِّغَر والاستدلال . أي : ما دونها صِغَراً؛ لأن عظمة الخلق كما تكون بالشيء الأكثر ضخامة تكون كذلك بالشيء الأقلّ حجماً الأكثر دِقَّة .

لو نظرتَ مثلاً إلى ساعة (بج بن) وهي أضخم وأشهر ساعة في العالم ، وعليها يضبط العالم الوقت لوجدتَها شيئاً ضخماً من حيث الحجم ليراها القادم من بعيد ، ويستطيع قراءتها ، فدلَّتْ على عظمة الصِّنْعة ومهارة المهندسين الذين قاموا ببنائها ، فعظمتها في ضخامتها وفخامتها ، فإذا نظرتَ إلى نفس الساعة التي جعلوها في فصِّ الخاتم لوجدتَ فيها أيضاً عظمة ومهارة جاءت من دِقَّة الصنعة في صِغَر الحجم

كذلك الراديو أول ما ظهر كان في حجم (النورج) ، والآن أصبح صغيراً في حجم الجيب .

ومن مخلوقات الله ما دق؛ لدرجة أنك لا تستطيع إدراكه بحواسك ، والعجيب أن يطلب الإنسان أنْ يرى الله جهرة ، وهو لا يستطيع أنْ يرى آثار خَلْقه وصَنْعته . فأنت لا ترى الجن ، ولا ترى الميكروب والجراثيم ، ولا ترى حتى روحك التي بين جنبيك والتي بها حياتُك ، لا يرى هذه الأشياء ولا يدركها بوسائل الإدراك الأخرى ، فمن عظمته تعالى أنه يدرك الأبصار ، ولا تدركه الأبصار .

نعود إلى المثَل الذي ضربه الله لنا : { مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ . . . } [العنكبوت : ٤١] أي : شركاء وشفعاء { كَمَثَلِ العنكبوت . . . } [العنكبوت : ٤١] هذا المخلوق الضعيف الذي ينسج خيوطه بهذه الدقة التي نراها ، والذي نسج خيوطه على الغار في هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشترك مع الحمامة في التعمية على الكفار .

{ اتخذت بَيْتاً . . . } [العنكبوت : ٤١] أي : من هذه الخيوط الواهية { وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت . . . } [العنكبوت : ٤١] فخطأ العنكبوت ليس في اتخاذ البيت ، إنما في اتخاذ هذه الخيوط الواهية بيتاً له وهبّة ريح كافية للإطاحة بها ، ويشترط في البيت أن يكون حصيناً يحمي صاحبه ، وأن تكون له أبواب ونوافذ وحوائط ..إلخ . أما لو اتخذها شبكة لصيد فرائسه لكان أنسب ، وكذلك الكفار اتخذوا من الأصنام آلهة ، ولو اتخذوها دلالة على قدرة الحق في الخَلْق لكان أنسب وأَجدْى .

وكما أن بيت العنكبوت تهدمه هَبَّة ريح وتُقطعه وأنت مثلاً تنظف بيتك ، وربما تقتل العنكبوت نفسه ، فكذلك طبْق الأصل يفعل الله بأعمال الكافرين : { وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً } [الفرقان : ٢٣] .

وكذلك يضرب لهم مثلاً آخر : { مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ . . . } [إبراهيم : ١٨] .

ومعنى : { لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : ٤١] أي : حقيقة الأشياء ، فشبكة العنكبوت لا تصلح بيتاً ، ولكن تصلح مصيدةً للحشرات، وكذلك الأصنام والأحجار لا تنفع لأنْ تكون آلهة تُعبد ، إنما لأنْ تكون دلالة على قدرة الخالق – عز وجل – فلو فكَّروا فيها وفي أسرار خَلْقها لاهتدوا من خلالها للإيمان .

فهي – إذن – دليلُ قدرة لو كانوا يعلمون ، فالجبل هذا الصخر الذي تنحتون منه أصنامكم هو أول خادم لكم ، ولمن هو أَدْنى منكم من الحيوان والنبات ، وسبق أن قلنا : إن الجماد يخدم النبات ، ويخدم الحيوان ، وهم جميعاً في خدمة الإنسان . إذن : فالجماد خادم الخدامين ، ومع ذلك جعلتموه إلهاً ، فانظروا إذن إلى هذه النقلة ، وإلى خِسَّة فكركم ، وسوء طباعكم حيث جعلتم أدنى الأشياء وأحقرها أعلى الأشياء وأشرفها – أي : في زعمكم .

فكيف وقد ميَّزك الله على كل الأجناس؟ لقد كان ينبغي منك أن تبحث عن شيء أعلى منك يناسب عبادتك له ، وساعتها لن تجد إلا الله تتخذه إلهاً .

بل واقرأ إنْ شِئْتَ عن الجماد قوله تعالى : { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا . . . } [فصلت : ٩–١٠] أي : في الأرض { رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ } [فصلت : ١٠] .

فكأن الجبال الصَّماء الراسية هي مخازن القوت للناس على مَرِّ الزمان ، فمنها تتفتت الصخور ، ويتكوَّن الطمي الذي يحمله إلينا الماء في أيام الفيضانات ، ومنها تتكون الطبقة المخصبة في السهول والوديان، فتكون مصدر خصْب ونماء دائم ومتجدد لا ينقطع . وتذكرون أيام الفيضان وما كَان يحمله نيل مصر إلينا من خير متجدد كل عام ، وكيف أن الماء كان يأتينا أشبه ما يكون بالطحينة من كثرة ما به من الطمي .فياليت عُبَّاد الأصنام الذين نحتوا الصخور أصناماً تأملوا هذه الآيات الدالة على قدرة الخالق سبحانه بدل أن يعبدوها من دون الله .

الخاتمة

(نسأل الله حسنها في الدنيا والآخرة)

فهرس المراجع

أولاً:. القرآن الكريم

ثانيا :. كتب التفسير وعلوم القرآن

١:. أمثال ونماذج بشرية من القرآن الكريم ،أحمد محمد طاحون :ط/مكتبة التراث الإسلامي . بدون .

٢:. أمثال القرآن لابن قيم الجوزية :ط /دار السلام . القاهرة ،١٩٩٢م.

٣:. الأمثال القرآنية القياسيةلعبد الله بن عبد الرحمن الجربوع ،رسالة دكتوراة بالجامعة الإسلامية بالمدينة ١٤١٤هـ .

٤:. البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي، ط: دار المعرفة . بيروت ١٤١٠هـ .

٥:. الإتقان في علوم القرآن ،للإمام جلال الدين السيوطي ، ط: المكتبة التوفيقية . القاهرة / بدون.

٦:. أمثال القرآن لعلي أصغر حكمت ، ط: دار الفكر . بيروت ١٩٨٥م.

٧:. الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله القرطبي ، ط: دار الكتب المصرية ١٩٦٤م.

٨:. الصورة الفنية في المثل القرآني،لمحمد حسين الصغير ،ط: دار الهادي . العراق ١٩٩٢م.

٩:. آلاء الرحمن في تفسير القرآن ، لمحمد جواد بلاغي، ط: داراِحياء التراث العبي . بيروت . بدون.

١٠:. التفسير المنير،د/ وهبة الزحيلي،ط: دار الفكر المعاصر . بيروت ١٤١٨هـ.

١١: الميزان في تفسير القرآن ،لمحمد حسين الطباطبائي، ط: مؤسسة الأعلمي . بيروت ١٩٩٧م.
١٢: تفسير المنار ،للشيخ محمد رشيد رضا ، ط: دار الشعب . القاهرة . بدون.
١٣: تفسير القاضي البيضاوي ،ط : دار الفكر . بيروت ١٩٨٣م.
١٤: تفسير القرآن الكريم ، للشيخ محمد متولي الشعراوي ،ط: مطابع الأهرام . القليوبية . بدون.
١٥: تفسير اللباب ، لابن عادل الدمشقي ،ط: دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٩٣م.
١٦: تيسير الكريم الرحمن في تفسير القرآن ، للشيخ محمد بن عبد الرحمن السعدي ، ط: مؤسسة الرسالة . بيروت ١٤٢٠هـ.
١٧: حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير القاضي البيضاوي ،ط: دار صادر . بيروت ، بدون.
١٨: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للإمام الآلوسي محمود بن شاكر ،ط: دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٩٣م.
١٩: مجمع البيان في تفسير القرآن ، للعلامة الطبرسي ،ط: دار الكتب العلمية . بدون.
٢٠: مفاتيح الغيب ، للإمام فخر الدين الرازي ،ط: دار إحياء التراث العربي . بيروت ١٩٨٥م.
٢١: الكشاف ،للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري ،ط: دار السحار . الفجالة . بدون.
٢٢: في ظلال القرآن ،للشيخ سيد قطب . ط: دار الشروق . بيروت ١٩٩٢م.

٢٣. محاسن التأويل ، لمحمد جمال الدين القاسمي ،ط: دار الحديث . القاهرة ١٩٩٠م.

ثالثاً: كتب الحديث وعلومه

٢٤. الجامع الصحيح ، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري،ط: دار ابن كثير . دمشق ١٩٩٠م.

٢٥. تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف ، للإمام جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي ، ط: دار ابن خزيمة . الرياض ١٤١٤هـ.

رابعاً: كتب اللغة والمعاجم

٢٦. الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني ،ط: دار الإيمان . المنصورة . بدون .

٢٧. التلخيص في علوم البلاغة ،للخطيب القزويني ،ط: دار الريان . القاهرة ١٩٨٣م.

٢٨. جمهرة أمثال العرب ، للإمام أبي هلال العسكري، ط: دار الكتب العلمية . بيروت . بدون .

٢٩. أسرار البلاغة ، للإمام عبد القاهر اجرجاني ، ط: دار الإيمان . المنصورة ١٩٩٧م.

٣٠. الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة ، لمحمد بن الحسن الأصبهاني ، ط: عيسى الحلبيوشركاه . بمصر . بدون .

٣١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ،ط: دار الإيمان . المنصورة . ١٩٩٦م.

٣٢. لسان العرب ، للعلامة ابن منظور الأفريقي ،ط:دار الحديث . القاهرة ١٩٩٩م.

٣٣:. مجمع الأمثال ،للميداني ،ط: عيسى الحلبي . مصر ١٣٧٨هـ.
٣٤:. معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، ط: دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٨٥م .
خامساً:. كتب الثقافة الإسلامية
٣٥:. أعلام الموقعين عن رب العالمين ، للإمام ابن قيم الجوزية . ط: المكتبة التوفيقية . القاهرة . بدون.
٣٦:. رياض السالكين ،لعلي خان المدني ،ط: مؤسسة النشر . العراق . بدون .
٣٧:. مجلة الهداية الإسلامية ،ج/ ٣ . القاهرة . ١٣٦٢هـ .
٣٨:. مروج الذهب في أخبار من ذهب ،للإمام المسعودي ، ط: دار الصفوة . المنصورة ١٩٩٧م.